الكريز.. أزهار الجرانيا الحزينة

الكريز.. زهور الزينة الحزينة

صدر العمل الأصلي عن دار نشر روفولت Rowohlt
بعنوان: **Die traurigen Geranien**
فولفجانج بورشرت/ ألمانيا
ترجمة: خالد طوبار
الغلاف: هانيبال – هيبو
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠٠٨
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٥٠٨٣
الترقيم الدولي: ISBN: 978- 977- 6299- 06- 1

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www sphinxagency com
info@sphinxagency com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2008
"Publication of this work was supported by funding from Goethe Institute"

ڤولفجانج بورشرت

وُلد المؤلف الألماني "ڤولفجانج بورشرت" عام ١٩٢١ في مدينة هامبورج وتوفى شابًا في سن السادسة والعشرين؛ بعد أن حُكم عليه بالسجن إبان الحكم النازي وأُرسل بعد ذلك إلى الحرب على الجبهة الروسية. عندما عاد مرة أخرى إلى مدينة هامبورج المحطمة لم يكن أمامه الكثير من الوقت؛ فقد تُوفيَّ متأثرًا بمرضه عام ١٩٤٧. كتب بورشرت عددًا من المجموعات القصصية، من أهمها مجموعة "خارج الباب....." التي كتبها في ثمان أيام، أما هذه المجموعة التي نشرت بعد وفاته في عام ١٩٦٢ فقد ظهرت بعنوان "زهور الجرانيا الحزينة"، يعتبر بورشرت الآن أحد أهم أعلام الأدب الألماني المعاصر الذين تركوا بصمتهم على خريطة الكتابة الإبداعية الألمانية.

خالد طوبار

روائـي ومتـرجم مـن العربيـة إلـى الألمانيـة. دَرَس علـم المصريات والعلوم الإسلامية في القاهرة وبرلين، وأسس العديد من المشروعات الثقافية التي تقوم على مد جسور التواصل بين الثقافات المختلفة، صدر له روايتان باللغة العربية: "برج الحمام" و "كتاب الزمان"، ورواية "نيران المخيم" من تأليف يوليا فرانك. له عدة أعمال مترجمة عن الألمانية منها: "خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء" للكاتب الألماني بيتر هاندكه ومختارات قصصية من الأدب الألماني المعاصر بعنوان "الحب الألماني" وبعض قصص الأطفال المترجمة. ترجم رباعيات صلاح جاهين إلى الألمانية، وكتب بالألمانية مسرحية بعنوان "لعبة الشطرنج العربية".

فولفجانج بورشرت

الكريز.. أزهار الجرانيا الحزينة

ترجمة: خالد طوبار

وكالة سفنكس

الجزء الأول

زهور الجرانيا الحزينة

كان المكان مظلمًا عندما تعرفا على بعضهما البعض، الآن هو جالسٌ معها بعد أن دعته إليها وأخذت تريه بيتها وفوط المائدة ومفارش السرير وأيضا الأطباق والشوك التي كانت لديها، لكنهما عندما جلسا لأول مرة أمام بعضهما في ضوء النهار الساطع رأى أنفها وظن أنه يبدو وقد خُيِّط بعد عملية جراحية، إن أنفها لا يبدو إطلاقا مثل الأنوف الأخرى، إنه يميل ليبدو مثل إحدى ثمار الحدائق، حدث نفسه قائلا:

"يا إلهي، إن فتحتا الأنف أيضًا قد خلقتا بطريقةٍ غير متناسقة تمامًا؛ فكلا الفتحتين ليستا متجانستيّن على الإطلاق، واحدة ضيقة والأخرى بيضاوية الشكل ذات هوة مظلمة مفتوحة من الأمام ودائرية غير مصنوعة بعناية."

مسك فوطة المائدة ومسح بها جبهته. فبدأت هي قائلة:

. الجو حار..... أليس كذلك!

رد هو يتطلع إلى انفها:

. نعم... نعم.

وحدث نفسه مرة أخرى:

[٥]لابد أن يكون قد خُيِّط إثر عملية جراحية. إن أنفها يبدو وقد اتخذ لونًا مختلفًا، أكثر قتامة، عن لون بشرتها. وفتحا الأنف حقًا لا تنتطويان على أي تجانس؛ أو تتسمان بنوع جديدٍ ومختلفٍ من التجانس.[٦] خطر بباله أن أنفها مثل أنف بيكاسو فقال:

. نعم.. هل ترين أن بيكاسو على الطريق الصحيح؟

فتساءلت:

. من؟ بييـ....كا...

. إذن ليس الأمر كذلك!

تنهد ثم قال فجأةً، ودون أي تمهيد:

. ألم يقع لكِ أي حادث من قبل؟

فتساءلت هي:

. لماذا؟

أجابها يائسًا:

. لا يهم.

. ربما تقول ذلك بسبب أنفي.

. نعم بسببه.

قالت هي صابرة عليه:

ـ لا لقد كان دائمًا على هذا النحو. نعم كان دائما هكذا.

كان على وشك أن يقول: "يا لها من صاعقة!" ولكنه قال:

. حقًا!

فَهَمَّتْ قائلة:

. وأنا بهذه الهيئة أعتبر نفسي إنسانة متجانسة تمامًا؛ خاصةً وأنا أحب التناسق. انظر إلى زهور الجرانيا بجانب لنافذة، واحدة على اليمين والأخرى على اليسار، متناسقتان تمامًا، لا.. صدقني أنني من الداخل شيء أخر مختلف تماما، حينئذ وضعت يدها على ركبته فأحس هو أن عيناها المليئتان بالحزن تتوهجا حتى مؤخرة رأسها، وقالت في هدوء وبشيء من الخجل:

ـ إنني أرى أن الزواج، بلا ريب، هو أفضل الطرق للمعيشة المشتركة.

فأنفلت منه لسانه قائلا:

. هل هذا أيضًا بسبب التناسق!

برفق صححت له ما قال:

. بل بسبب الانسجام.

. طبعًا بسبب الانسجام!

قالها ثم نهض واقفا.

. آه، ستذهب؟!

. نعم... أنا... نعم!

. صحبته إلى الباب وبدأت مرة أخرى متحدثة:

. ولكني من الداخل شيء آخر مختلف تماما!

فحدث نفسه قائلا:

"ياله من كلام فارغ، إن أنفك شيءٌ لا يطاق، شيء خُيِّط بطريقةٍ لا تطاق."

ثم قال بصوتٍ عال:

. إنك من الداخل مثل زهور الجرانيا.

. تريد أن تقول إنني متناسقة جدًا. أليس كذلك؟

هبط السلالم، دون أن ينظر خلفه بينما وقفت هي عند النافذة وأخذت تنظر إليه ورأت كيف وقف أمام المنزل ومسح جبهته بمنديل، مرة، ثم مرة ثانية وثالثة. لكنها لم ترى كيف ابتسم في ارتياح بعد ذلك، لم ترى ذلك لأن عيناها كانتا خلف حاجز مائي وزهور الجرانيا كانت أيضًا مثلها حزينة ورائحتها على أية حال كانت تنضح بذلك.

قبل الغروب

ظلت هيَّ في مكانها داخل البيت الطويل الضيق رمادي اللون وقالت:

. ماذا؟!

نظر إليها، لكن الوجوه قبل وقت الغروب تبدو غارقة الملامح، رأى وجها بيضاويًا شاحبًا، فقالت:

'نعم.'

صدر صوتٌ مجلجلٌ ضاحكٌ من سلسلة مفاتيحها، فقال الشاب في الحال:

'أظن أن هذا هو شارع كاترينن، أشكرك!'

انحصرت نظراتها فوق نقطة مضيئة من داخل عينيها الباهتتين مثل الجيلي ومن وراء نظارة سميكة العدسات، كانت هذه النقطة المضيئة هي وجهه، قالت بملامح بلهاء:

'لا هذا ليس شارع كاترينن، لكنني أسكن هنا.'

ضحكت سلسلة مفاتيحها في هدوء.

قال الشاب مندهشا:

'هذا ليس شارع كاترينن!'

قالت هامسةً:

'لا.'

قال الشاب بصوتٍ عال:

'ما الذي جاء بي إلى هنا، إنني أريد الذهاب إلى شارع كاترينن.'

قالت هي بصوت أصغر من حقيقته:

'لكنني أسكن هنا، هنا في هذا البيت!'

رنت سلسلة مفاتيحها.

هنا أدركَ الأمر، أقترب من الوجه الشاحب البيضاوي الذي وضع نظارة، كان لون عينيها فعلا مثل الجيلي، مائي جدًا؛ وينطوي على شيءٍ من الحماقة، سألها قبل أن يمد يده نحوها:

'تسكنين هنا وحدك؟'

ردت في تراجع:

'طبعا وحدي.'

كان مسمع صوتها مختلفًا تمامًا حتى أنه قد أفزعها هي نفسها، وربما لم تسمع صوتها بهذا الشكل طيلة ٣٧ سنة من عمرها:

'نعم عندي غرفة.'

تركها فجأة وسأل:

'وشارع كاترينن!'

أجابت بصوت اقترب من أصله:

'هنا، ثاني شارع إلى اليسار.'

قبل أن يلتفت للرحيل كرر الجملة قائلا:

'ثاني شارع إلى اليسار.'

خرجت كلمة "شكرا" في بطء وتباعد في مثل هذا الوقت من اليوم، وقت ما قبل الغروب، وتهاوت خطواته دون هوادة وتراجعت لتأخذ مسارها باتجاه شارع كاترينن.

لكنه كان قد التفت مرة أخرى إلى الخلف. رأي نقطة رمادية تتبعه، ربما كان البيت نفسه، هذا البيت الضيق المرتفع، وربما كانت عينها المصنوعة من الجيلي خلف النظارة، كان بهما نوع من الحماقة، يا إلهي! عمرها كان أربعين عامًا على الأقل.

والخيبة الكبرى أنها قالت فجأة: أنا عندي غرفة. ابتسم في وجه الغروب ثم أنحنى إلى اليسار نحو شارع كاترينن.

وظلت نقطة رمادية عالقة في البيت الضيق الطويل تتنفس وتهمس من بعيد:

'كنت أظن أن يرغب في شيء، لقد نظر إليَّ وكأنه لم يكن يرغب في الذهاب إلى شارع كاترينن، لكنه بالتأكيد لم يكن يرغب في شيء.'

عاد صوتها إلى طبيعته، صوت يشبه صوت امرأة في السابعة والثلاثين من عمرها، عَجَزَتْ عن فهم الأمور

فغرقت عيناها في الدموع خلف النظارة لتبدوان كما لو أن شخصًا وضعهما في حوض أسماك:

'لا بالتأكيد أنه لم يرغب في شيء.'

أغلقت الباب وجلجل المفتاح بصوت منخفض، شديد الانخفاض

لا يكاد يسمعه أحد.

الكريز

سمعتُ صوت قرقعة أكوب زجاجية، الآن بدأ في التهام الكريز رغم أنني الذي يعاني من الحمى وليس هو. لقد وضعت هي الكريز خصيصًا عند حافة النافذة حتى يظل باردًا، ألقى بالكوب جانبًا وتركني أعاني الحمى.

نهض المريض من مكانه وسار بحرص جانب الحائط ونظر من الباب فرأى أبيه جالسًا على الأرض وفي يده كوبٌ ممتلئٌ من عصير الكريز، رأى المكان كله مليئًا بالكريز، هذا الكريز الذي من المفترض أن يأكله هو لأنه مريض بالحمى، يد أبيه كانت ممتلئة بالكريز البارد الجميل رغم أنها وضعته في مكانه خصيصًا عند حافة النافذة، لكنه أخذه وجلس به على الأرض مسترخيًا بيد ممتلئة بالكريز، كان بالتأكيد باردًا وجميلا وكنت أنا محموما، هو يأكله كله وأنا لم يتبق لي غير الحمى، يجلس بالعصير البارد الجميل على الأرض ويتركني أعاني الحمى، رغم أنها وضعته لي خصيصًا على حافة النافذة حتى أتخلص من الحمى.

استند على الباب بخفه، لكنه أصدر صوتًا جعل الأب ينظر إلى أعلى ناحيته:

'يا ولد، يجب أن تذهب إلى السرير، أنت تعاني الحمى، اذهب في الحال!'

همس المريض لنفسه قائلا:

'المكان كله ملآن بالكريز، يده ممتلئة بالكريز!'

نهض الأب بصعوبة مقطبًا جبينه وسقطت بعض قطرات العصير من بين أصابعه:

'ولد.. يجب أن تذهب توًا إلى السرير.'

الكريز، أنه كريزي، هل كان الكريز فعلا باردا؟ بالتأكد كان باردًا بشكل جميل، أليس صحيح أنها قد وضعته ليّ عند حافة النافذة! حتى يظل باردا.

نظر الأب له من أسفل، نظرة عديمة الحيلة وابتسم قليلا ثم قطب وجهه وقال:

'من الغباء أن لا تفعل ذلك لن أصعد إليك، فعلا أنا أعني ما أقوله تماما، لن أصعد إليك.'

استند الولد المريض الباب، الذي اصدر صوتًا منخفضًا بسبب اهتزازه، سأل الولد نفسه:

'هل كان الكريز فعلا باردًا، بالتأكيد كان كذلك.'

قال الأب مبتسمًا:

'لقد سقطت من مكاني، لقد فزعت، وأصبحت عاجزًا تماما عن فعل شيء بسبب الصدمة، لكنني سأعود

حالا إلى طبيعتي، وسأقوم بإحضارك إلى السرير، يجب أن تنام في الحال.'

ينظر الولد إلى يد أبيه فيقول الأب:

'أنه ليس خطيرًا، حرج صغير، وسيتوقف الدم بسرعة، كل هذا بسبب الفنجان.'

لوح بيده وقطب وجهه وقال مسترسلا:

'أتمنى ألا تغضب بشدة، لأن هذا الفنجان كان فنجانها المفضل، وأنا السبب في كسره، بالتحديد ذلك الفنجان الذي تفضله دون كل الفناجين، كل ما كنت أرغب فيه هو غسل الكريز كي يصبح باردًا، ولكنني انزلقت، كنت سأضع كريزك في الفنجان، لأنه من الصعب أن تشرب من الكوب وأنت في السرير.'

نظر الولد المريض إلى يد أبيه وهمس لنفسه قائلا:

'لكريز، كريزي!'

حاول الأب أن ينهض مرة أخرى وقال أثناء ذلك:

'أحضر إليك الكريز في الحال، لكن أذهب إلى سريرك في الحال، أنت محموم، سأضع الكريز عند النافذة حتى يظل باردًا، سأحضره إليك في الحال.'

تحرك الولد المريض بجانب الحائط عائدًا إلى سريره، وعندما دخل الأب عليه بالكريز، كان قد دفن رأسه تحت غطاء السرير.

أخشاب الغد

أغلق وراءه باب الدور العلوي، أغلقه بكل هدوء وبدون عناء وكأنه أراد أن ينهي حياته مع إغلاق الباب. هذه الحياة التي لم يفهمها ولم يفهمه فيها أحد. حتى هؤلاء الذين أحبهم لم يفهموه، لهذا بالتحديد أصبح الأمر لا يطاق، أمر الحياة مع الآخرين بسطحية والمرور عليها بشكل عابر، هؤلاء الذين أحبهم. والأكثر من ذلك هو نمو الأمر وازديادة وتعاظمه حتى أصبح من المستحيل إزاحته أو التخلص منه.

كان من الممكن أن يبكي في الليل دون أن يسمعه أحد من الذين يحبهم، يرى أمه التي أحبها كثيرًا تكبر في السن، وكان يرى أن هؤلاء الذين يجلسون معه في الغرفة ويضحكون ويضحك معهم لا يجعلونه يتخلص من شعوره بالوحدة الذي وصل ذروته حتى هذه اللحظة. لم يسمع الآخرون صوت إطلاق النار، بينما كان يسمعه هو، كانت هي تلك الحياة السطحية التي لم يطقها مع الذين أحبهم.

وقف فوق السلالم متجهًا إلى غرفة فوق سطح البيت حتى ينهي حياته، كان قد فكر طول الليل في إنجازه لهذه المهمة وقد قرر أن يقوم بفعلته هذه في غرفة السطح، لأنه المكان الوحيد الذي يُقَدم أهم الشروط اللازمة لكل الخطوات التالية وهو أن يكون وحده دون مرافقة الآخرين. لم يكن لديه ما يمكنه من إطلاق الرصاص على نفسه، والسم لم يكن مضمونًا، خصوصًا مع احتمال إفاقته بمساعدة الأطباء بعد الفشل ليتحمل مرارة الوجوه المتعاطفة ونظرات اللوم والحب والخوف التي يحملها له الآخرون. لم يعجبه ألقاء نفسه في النهر لأنه شديد الحساسية، بينما من الشرفة سيكون الحدث مثيرًا جدا، لذلك فضّل الصعود إلى غرفة السطح والانتهاء من الأمر في هدوء ودون أن يلاحظ أحد شيئًا، حيث كانت هناك العروق الخشبية للسقف وسلة الملابس ذات الأحبال. بعد أن أغلق وراءه باب الدور العلوي أمسك الدرابزين بقوة ودون تردد ليصعد إلى أعلى، سقف الغرفة المصنوع من الزجاج أتخذ شكل القبة وأظهر السماء باهتة ومقتربة بوضوح من السقف، حيث غُطي الزجاج بشبكة من السلك كانت تشبه خيوط العنكبوت.

أمسك الدرابزين النظيف ذا اللون البني الفاتح وصعد إلى أعلى دون عناء، أكتشف على درج السلم خطًا

عريضًا فاتح اللون أو ربما مصفر قليلاً، وقف في مكانه ومر فوقه بإصبعه ثلاث أو أربع مرات، نظر خلفه وأكتشف مرور الخط بطول السلم أنحنى قليلا فتأكد من أن الخط يمكن تتبعه نحو الدرج لأسفل حتى عمق الطابق الأرضي المظلم. تدرج لونه ليصبح بني غامق لكنه لم يصل إلى نفس الدرجة البنية للسلم، كان أفتح منه، مرر إصبعه عدة مرات فوق الخط وحدث نفسه: لقد كدت أن أنساه.

جلس على السلم وأكمل حديثه لنفسه: أريد أن أنهي حياتي وكدت أن أنسى ما حدث، ما فعلته بالمبرد الصغير الخاص بـ "كارل هينتس"، أخذته في قبضتي ووضعته فوق السلم وهبطت به بسرعة ضاغطًا فوق الخشب وضغطت أكثر في منحيات السلم أثناء محاولتي التوقف، عندما كنت قد وصلت إلى أسفل، كان هناك أثر لخط طولي من أعلى غرفة السطح حتى الطابق الأرضي، خط طولي غائر. كنت أنا الذي فعلت فعلتي هذه، وفي المساء تم استجواب كل الأطفال في البيت، البنتان أسفلنا، كارل هاينتس وأنا، قالت صاحبة البيت إن تصليح السلم سيتكلف على الأقل ٤٠ ماركا، وكان والدي على يقين أنه لم يكن واحد منا الذي قام بهذا الفعل، كما أنهما كان على قناعة بأنه لا يوجد طفل يقوم بتخريب السلم في داخل بيته، وخصوصا أن عمل شيء

كهذا يتطلب شيئا حادا، وبالطبع لم يكن في بيتنا شيء كهذا، لكنني كنت صاحب هذا الفعل الذي فعل فعلته بالمبرد الصغير الحاد، ولما لم يرغب أحد من سكان البيت في دفع الاربعين ماركا، رفعت صاحبة البيت خمسة ماركات فوق الإيجار الشهري لإعادة تصليح السلم المخرب، حيث تم شراء مشمع لتغطية السلم بهذا المبلغ، واشترت السيدة داوس قفازات يد جديدة استبدلت تلك التي تلفت بسبب الاحتكاك بالسلم المخرب، بعد ذلك أتى عامل ليسوي الحواف بالفارة ويضع مكانها حشوًا في كل الدرجات من السطح حتى الطابق الأرضي، وأنا كنت من قام بهذا الخراب، بل كدت أن أنساه وأنا أريد أن أنهي حياتي.

جلس على السلم وأخذ ورقة. أنا كنت من فعل فعلته بالسلم، وكتب أعلى الورقة: إلى السيدة كاوفمان صاحبة البيت، سحب كل ما كان في جيبه من النقود، ٢٢ مارك، طوى الورقة حول النقود ووضعها في جراب صغير حول صدره وأكد لنفسه أنهم بالتأكيد سيجدون الورقة، ونسيَّ أن أحدًا لن يتذكر ما حدث، لأن ذلك كان من إحدى عشر سنة، لقد نسيّ ذلك تمامًا، وقف في مكانه فأحدث الدرج صوتًا، رغب في الذهاب إلى غرفة السطح، لأنه أنهى ما حدث للسلم وأصبح بوسعه الذهاب إلى أعلى، تمنى لو كان بمستطاعه أن يصرخ

بأعلى صوته قائلا: أنا لن أتحمل الحياة السطحية مع من أحبهم. ود فعلاً أن يصرخ.

شخصٌ ما فتح الباب من أسفل، وسمع أمه تقول: وبَلغْها ألا تنسى مسحوق الصابون، وقل لها أيضًا إن الولد سيذهب خصيصًا بالعربة حتى يحضر الأخشاب ونتمكن من الغسيل والاستحمام غدًا، قل لها أن ذلك سيريح أبيها أن لا يذهب بالعربة الخشبية وأن الولد سيذهب بدلاً منه لأنه موجود هنا، وسيقوم خصيصًا بإنجاز ذلك اليوم، يقول الأب: إن الأمر يعجبه، فهو لم يستطع فعلا ذلك طوال السنوات السابقة، والآن سيكون بوسعه أن يحضر لنا الأخشاب، حتى نغتسل ونستحم غدًا، قل لها إنه سيذهب خصيصًا بالعربة وأنها لا يجب أن تنسى مسحوق الصابون.

سمع صوت البنت ترد ثم أغلق الباب وهبطت البنت السلالم، كان بوسعه متابعة صوت يدها الصغيرة فوق الدرابزين بطوله، كما أنه سمع صوت قدميها، بعد ذلك أصبح كل شيء صامتا، ولم يسمع المرء غير صوت السكون.

هبط السلالم درجة درجة إلى أسفل، هبط ببطء إلى أسفل وقال لنفسه: يجب أن أحضر الأخشاب، لقد كدت أن أنسى ذلك تمامًا، يجب أن أحضر أخشاب الغد.

هبط السلالم أسرع وترك يده تصطدم بخفة فوق الدرابزين، الأخشاب! يجب أن أحضر أخشاب الغد. السقف الزجاجي في غرفة السقف جعل السماء تبدو باهتَة وفي الشارع أضاءت المصابيح اليوم وكل الأيام.

كل محلات الألبان اسمها هينش

كل محلات الألبان أسمها هينش، وكل الهنشيين شعرهم أشقر، ولهم رائحة تنضح بالصحة مثل رائحة الرُضع أو الخوخ الناضج. كل من اسمهم هينش لهم أيدى محمرة وكبيرة، وترجع حمُرة أيديهم إلى كثرة غسيلهم لزجاجات وصفائح الألبان، فالصفائح ثقيلة والزجاجات ناعمة، لهذا السبب أيديهم مشققة أيضًا.

دائمًا ما يكون السيد هينش ضخم وبطيء وطيب، والسيدة هينش دائما ما تكون صغيرة الحجم وسريعة وطيبة، وابنتهما إليزي متوسطة الحجم ومتعبة في الحركة ومتقلبة المزاج. أقدام عائلة هينش تتجمد في الشتاء بسبب الأرضية المصنوعة من الحجارة والتي صنعت لتسهل مهمة تنظيفها، كل عائلة هينش ترتدي في الشتاء جوارب مصنوعة من الصوف وشبشب خشبي وشال حول الرقبة وتكون أنوفهم حمراء من البرد وتتجمد أصابعهم ويصابون بنزلات برد مزمنة.

في الصيف لا تشعر عائلة هينش بالحر ولا يعرفون العرق إطلاقا، وهذا طبعا بفضل الأرضية المصنوعة من

الحجارة والتي تسهل مهمة التنظيف كما نعرف، في الصيف تحب عائلة هينش درجات الحرارة المرتفعة وتتعجب بأفواه مفتوحة من عدم احتمال الآخرين لذلك، بل ويحتفظون أيضا برائحة الخوخ الناضج، الشيء الذي يزيد من حسد زبائنهم، خصوصا مع توفر الكثير من الحليب الرايب عندهم وإغلاقهم المحل في تمام الساعة الخامسة والنصف بحجة انتهاء الحليب أو فساده، ولا تنسى أن السيد هينش طيب وضخم ومعتدلا في غضبه والسيدة هينش سريعة وصغيرة وظريفة، ولكن إلزي أصبحت متقلبة المزاج منذ الخامسة عشر من عمرها وقبل ذلك كانت مثل كل الناس.

كانت عربات النقل الثقيلة المسلحة تجوب عبر المدن بأحمالها الثقيلة على الشوارع الهادئة لتقف أمام محلات الألبان محدثة صوت كركرة داخل أحشائها وكأنها مصابة بدور برد، كانت تأتي في الليل لتشرب الناس القهوة مع الحليب في النهار. الكثيرون كانوا ينظرون إلى سائقي هذه العربات على أنهم مرودي هذه الآلات ذات العيون المنيرة والمشعة، كانوا هم الأبطال الذين يحملون على عاتقهم هذه المهمة الخطيرة المحفوفة بالمخاطر أثناء الليل حتى تتمكن الناس من شرب القهوة بالحليب في النهار.

إلزي ظلت طبيعية حتى الخامسة عشر من عمرها، شعرها كان أشقر وبدت عليها الصحة والتغذية السليمة.. في الليل أتت عربات الحليب لتجبر عائلة هينش على النهوض ومغادرة أسرتهم وجنة الهدوء، يحدث ذلك بشكل بديهي كل ليلة لتتخلى العائلة عن أسرتهم الدافئة ويقومون بإنزال تسعة عشر صفيحة ممتلئة بالحليب وتحميل تسعة عشرة أخرى فارغة.

كانت إلزي شقراء وتنعم بصحة وتغذية جيدة وعمرها خمسة عشر عاما، ربما كانت تخفي حبها في مغادرة سريرها الدافئ وأحلامها الغريبة لترفع بملابسها الخفيفة صفائح الحليب الباردة تحت نجوم السماء الممتلئة بالأسرار، ربما مثّل لها ذلك شيئا! مثل تناول الأيس كريم! أو الاستحمام!أو شرب عصير الليمون في الصيف!

أدرك الفرسان الأبطال قائدي الأبقار . السائرة بالبنزين وبعجلات أربع.. كرعاة أبقار المدن الكبرى! . رغبة هذه الفتاة الشقراء صاحبة الخصر العريض في الحصول على نوع من التبريد الليلي!.. يا إلهي! إنهم كانوا يعلمون أيضا أنه في ضوء القمر تبدو أي فتاة مهما كان شكلها مثل مريم العذراء!حتى ولو كان خصرها عريضاً!

هؤلاء الأبطال -حتى المثاليين منهم- من ذلك النوع من الرجال الذين ينهون عملهم في أخر مدينة بوقوفهم بجانب عرباتهم لشرب البيرة التي معهم، ولا يهتمون بملاحظة زوجات أو بنات عائلات هينش لهم.. (لا تنسى أن كل أصحاب محلات الألبان أسمهم هينش!)، وطبعا هؤلاء الأبطال ليس لديهم هوادة على الإطلاق ولا يعرفون حرص الجبناء، لأنهم يمتازوا بالشدة!

فجأة تركت الفتاة صفيحة اللبن تسقط من بين يديها بعد أن اجتهدت في رفعها - بكلتا يديها - لتحملها داخل العربة، فعلت ذلك عندما شعرت بواحد من هؤلاء الأبطال يمد يده من تحت رداءها ليداعب جسدها.

لقد أعتبر البطل الهمام هذه اللحظة التي فعل فيها ذلك هي اللحظة المناسبة تماما، خصوصا وأن ثدي الفتاة تمدد إلى الأمام بشكل مغري، كما أن يديها انشغلتا بحمل اللبن، لم يهجم البطل بذراعيه القويتين واللذين اعتادا على حمل أطنان بقوة الأحصنة للسفر بها.. لم يهجم بالطبع بطريقة ناعمة!، وكيف يسمح البطل الهمام لنفسه بشيء كهذا؟!

إن البنات الشقراوات لهن دماء وأَسِرة ساخنة في الأيام الصيفية ولا يحتجن إلى روح بخصر عريض، لأن أرواحهن مجعدة وقابلة للكسر مثل لُعب الأطفال التي يمكن للكبار تحطيمها في ثانية واحدة تحت الأقدام..

والبنات التي يحملن صفائح اللبن الباردة فوق صدورهن . مثلما تحمل جنود المشاة قنابلهم . لا يحتجن إلى أرواح خفيفة الظل!.. ربما تكون أرواحهن أجمل وأنقى ولها ألوان فضية، لكنها ليست خفيفة الظل!، هي جميلة كرائحة الزهور ونقية كالحليب الطازج وفضية مثل أجنحة عرائس البحر والفراشات الليلية اللامعة!.

ويبدو أن بطل أوزان الأحصنة المتين فقد السيطرة على أحاسيسه، أحاسيسه؟! .. نعم ربما يكون لديه أحاسيس!، كان يريد أن يأخذ إلزي كما يأخذ المنحنيات بسهولة أثناء سفره على الطريق، كان يريد أن يرمي بها بين يديه كما يحرك إطار قيادة العربة!، لكن الكائن ذا الروح الفضية فزع فزعًا شديدًا لأنه شديد الحساسية، ومن السهل جرحه مثل جناح الفراشات في ظل هذا الواقع الرخو!.. وخبطت صفيحة اللبن رأس الفتاة بقوة أثناء التحميل بعدما تركتها تسقط من بين يديها المرعوبتين، وتحول رأس الفتاة الشقراء إلى رأس متورم ومتوهج بلون الدم!

هذا هو ما حدث!، وبعد أن عادت إلزي من المستشفي لم تعد كما كانت، أو كما تكون كل الناس، لقد انحنت مثل الزهرة المنكسرة التي لا يسقيها أحد وحُبست طوال الوقت خلف نافذة لا ترى الشمس.

تقول الناس أنها لم تعد سليمة نفسيا!، والداها يقولان أنها متقلبة المزاج وهي نفسها لم تعد تقول شيئا، لم تعد تنطق بعد ذلك بكلمة واحدة عن حياتها، لأن روحها الفضية التي حُطمت مثل جناح الفراشة كانت لا تزال تحوم حول بطلها، الذي ضحى بعقله منذ زمن طويل لإله التكنولوجيا عند شجرة ضخمة أو عمود كوبري ثم داست قلبه ودكته عجلات كاوتش لعربة نقل غريبة تجوب المدن، حتى أفقدته حاسة الرؤية والسمع والقدرة على الاغتصاب!

بعد ذلك كانت عربات الألبان تقف مرتعشة وخائفة أمام نوافذ عائلة هينش، فيستيقظ كل من الأب هينش والأم هينش والابنة هينش ومعهم ورح اليزي الهائمة بعد أن تثيرها أصوات كركعة الصفائح المجلجلة وتفيق زهورها المنكسرة من غفوة وتطرد خجل أجنحتها المهشمة، ربما كانت تبحث هذه المرة من جديد عن بطلها بدون خوف، لكنها لن تجده وستظل في سريرها مستيقظة لمدة طويلة بعد رحيل العربة التي تأخذ معها أصواتها في هدوء.

الناب

لماذا يكره أبن عمي.. أكل الحلوى المحشية بالقشدة؟!

السينما كانت لطيفة وصغيرة؛ ساد خلف حوائطها المنخفضة مزيجٌ من رائحة الأطفال والحركة والحلوى.. كل المكان كان معبئاً برائحة الحلوى المحشية بالقشدة، ويرجع سبب انتشار هذه الحلوى بشكل مهول إلى بيعها بجانب نافذة التذاكر، كما أن الخمسة منها كانت بعشرة قروش!، لكن كل ذلك لم يقلل من لطف السينما، العيب الوحيد هو أنها كانت منخفضة، ولم تسع أكثر من مائتي شخص، مثل كل سينمات المدن الصغيرة التي نطلق عليها ـ بنيّة حسنة ـ "صندوق البراغيث!".. سينماتنا كان اسمها "فيكتوريا للألعاب الضوئية" تقدم يوم الأحد من كل أسبوع بعد الظهر عرضًا مخصصًا للأطفال بنصف الثمن، والأهم من العرض كان شراء الحلوى التي

أصبحت ضرورية داخل السينما وعرض يوم الأحد بالتحديد! وربَحَ بائع الحلوى ببيعه الخمسة قطع بعشرة قروش..للأسف كان ابن عمي لديه ثلاثين قرشا يمكن تحويلهم إلى كمّ كبير من الحلوى، لهذا كنا أسعد طفلين وسط المائتين، وكنت محظوظا بالجلوس بجانبه!، بجانب ابن عمي!

في البداية غمرتنا السعادة لكن مسألة "للأسف" حدثت بعد ذلك..أصبح المكان مظلمًا بطريقة ممتعة وسارت الأمور ببطء، وبدأت الأفواه الماضغة والتي بلغت ما يقرب من مائتي فم في إصدار صوت المضغ في نفس اللحظة! ثم سادت داخل السينما حركة الأقدام وصراخ الأطفال الذي بدأ مع صياح الهنود الحمر وصفير مستمر، تعبير لذيذ عن السعادة ببدء العرض في يوم الأحد من كل أسبوع.

أظلم المكان وأضاءت شاشة العرض لتبدأ الموسيقى ويتوقف صياح الهنود الحمر ويعود صوت مضغ الحلوى في الأركان متداخلاً مع صوت دق مائتي قلب!، ويبدأ الفيلم.

بعد أن يبدأ الفيلم لا يتمكن أحد من الفصل بين الأحداث، لكن الجميع يعرفون أن أكثر ما يحدث في الفيلم هو ضرب النار وإنقاذ البعض وأحداث النهب

وتقبيل الرجال للنساء، وسط كل هذا صوت مضغ مائتي لسان.. حينما كنا نعود إلى البيت ونحكي عن الفيلم كنا لا نحكي إلا عن ضرب النار والإنقاذ والنهب، لم يحكي أحد عن القبلات، ربما لأنها كانت غير مهمة!.

وكلما زادت عمليات ضرب النار والإنقاذ على الشاشة زادت معها حركة الحلوى من الخد الأيمن إلى الأيسر، لقد سمعنا هذه الحركة بوضوح ووصلت إلى حدها الأقصى وتحولت إلى صوت يشبه الشلال مع ظهور عمليات مثل الهروب بالأحصنة في منطقة صحراوية.

المكان كله كان ممتلئا بالإثارة ورائحة الأطفال والحلوى وفي الأركان رائحة الحلوى المحشية بالقشدة.

قام سبعة لصوص بلحى سوداء بالقبض على البطل الأشقر، نظر بعدها البطل إلى السماء بنظرة بطولية ودرامية.. قبل ذلك بلحظات اختبأ اللصوص بمسدساتهم المعدة لإطلاق الرصاص خلف حواجز نباتية مليئة بنباتات الصبار، وفجأة سُمع صوت صراخ!.

الصراخ في حد ذاته لم يكن شيئا خاصا، لأن كل الأحداث المثيرة فوق الشاشة قد اصطحبها صراخ مائتي طفل تعليقا على الأحداث بمشاعر متدفقة، لكن الصراخ هذه المرة كان من نوع جديد، كان أعلى من اللازم وأكثر فزعا!، حتى أنني شعرت بقشعريرة تسير في ظهري،

خصوصا أنني كنت جالسا بجانب الصارخ وهو ابن عمي!، لقد أتى صراخه من الحلقوم وكأنه صراخ عالٍ لجرو صغير، صرخ ثلاث مرات، صراخ من فقد الأمل وصراخ من النوع الذي لا يمكن تجاهله، هكذا يمكن وصفه!

ونجح الصراخ في الوصول إلى هدفه وتوقف كل شيء على شاشة العرض، الكلام والموسيقى وفُتحت الأضواء في الصالة، ولم يكن من السهل التعرف على السبب وراء الصرخات الثلاثة لهذا الطفل الباكي بشهقات متذمرة، والذي كان ابن عمي! الذي عرفته منذ لحظات قليلة، لكن لحسن الحظ أننا فهمناه بعد لحظات وفهمه أيضا صاحب السينما الذي كان في نفس الوقت بائع التذاكر والحلوى المحشية والذي لعن وسب الحلوى وخصوصا المحشية منها بطريقة رجولية!، لأنه باعها لابن عمي!

لكن المذنب الحقيقي وراء ذلك كان ابن عمي نفسه!، والذي حذرته أسرته وطبيب الأسنان أكثر من مرة تحذيرا شديد اللهجة بألا يتناول الحلوى المحشية، لكنه تناولها رغم كل التحذيرات! وحدث ما كان يخشى وقوعه وضللت كتلة الحلوى الناب وجعلته يتحرك من مكانه ويغادر موقعه.. كان ابن عمي قد ركّب منذ طفولته هذا الناب الذي كنا نحسده عليه، لأنه بدا وكأنه نابا حقيقيا.

ظلّ ابن عمي مفتوح الفم طوال الوقت نظرا للأحداث المثيرة على شاشة العرض، فكان من السهل على الناب أن يتحرك خلسة بطريقة دنيئة ليهرب تاركا مكانه خاويا بين كل إخوانه من الأسنان ويجرى متحركا بين صفوف ومقاعد السينما باحثا عن مغامرة جديدة!

بعد عشرة دقائق توقف البحث عن الناب الذي حالفه الحظ! فمن ذا الذي يبحث عن ناب ويجده تحت ظلام مائتي مقعد يجلس عليها الأطفال في حركة مستديمة، وطبعا لم يساهم الصياح والصفير المستمر في تقديم أي عون أثناء ذلك.. ربما يكون الناب قد وجد مأوى جديدًا في جيب بنطلون لطفل غريب رأى فيه الغنيمة الكبرى. على كل حال فقد ضاع الناب!

مرة أخرى تظلم الصالة وتنير الشاشة ويعود كل شيء لمسيرته حيثما توقف وتعزف الموسيقى، لكن أبن عمي جلس بجانبي صامتا في بقاياه كابحا دموعه بعد أن كان يمضغ الحلوى في فخر!

ولأن لكل شيء نهاية، فسرعان ما ينتهي أيضا عرض سينما الأطفال في المدن الصغرى، وتصبح الشاشة متعبة وتتوقف الموسيقى، وينتهي كل شيء، وعلى العكس يفتح في الأمام فجأة بابان على جانبي الصالة فيدخلان نور الشمس الساطع إلى الصالة، شمس ظهيرة يوم الأحد!.. خلال دقائق معدودة تغادر الأطفال الصالة في حركة

صاخبة وترحل مثل فقاعات متطايرة من أبواب مغامرة يوم الأحد نحو الهواء الطلق.

كنت أنا وابن عمي . بدون نابه طبعا! . آخر من خرج، نظرنا إلى بعضنا البعض في صمت، بمزاج عكر ومشاعر سوداوية بنوع من الرجولة تشبه من هم في الثانية عشرة من عمرهم، وشعرت بتحذير جاد يخرج من عينيّ ابن عمي متجها نحوى ومتربصا بي: لو ضحكت الآن فسوف أقتلك!

لم أضحك في ساعتها، لكنني ضحكت من كل قلبي بعد ذلك بخمس دقائق.. كنا مازلنا معا، ابتعدنا خطوات قليلة عن مخرج السينما، وسطعت إشعة الشمس السعيدة بقوة لا تتناسب مع الموقف، وعاد صوت الصراخ، هذه المرة كنت أنا الذى هرع صارخا!

وقفت في مكاني وكأن أصابعي قد دخلت في فخ الفئران، فصرخت عاليا، صيحة مليئة بالنصر:

_ وجدته!!

همس ابن عمي متسائلا:

_ وجدت من؟!

صحت للمرة الثالثة:

_ وجدت الناب.. أنا أقف فوقه!!

ورفعت قدمي من فوق السجادة الحمراء المتسخة وإذا بالناب قابعا فوقها غير عابئ!وكأن شيئا لم يحدث!

إن الحصى الذي اصطدم بكعبي كان ذلك الناب الخائن.. أربعمائة قدم أزاحته خارج السينما، وما كان يجرؤ على التحرك كل هذه المسافة وحده!

وصاح ابن عمي ثانية ونزع نابه من يدي ونظر إليه نظرة عتاب وحرّكه ليضعه في مكانه دون حتى أن يمسحه في جاكتته، وعدنا للضحك مرة أخرى حتى تساقطت دموعنا من الضحك فوق قمصان يوم الأحد النظيفة..كنت على يقين أن ابن عمي كان يريد أيضا أن يغرق في الضحك بعد أن ضاع الناب ولكن الناب عاد الآن إلى مكانه ولم يعد هناك سبب لكبت ضحكنا الباكي.. لم يرغب ابن عمي في رؤية الحلوى المحشية مرة ثانية في حياته، وبالطبع كان بوسعي أن أتفهم موقفه جيدا!

الليلة الحبيبة الرمادية الزرقاء

ليس صحيحا أن الليل يجعل كل الأشياء سواء!، فالليل له لون تعجز الأشياء عن وصفه وتقليده، لون رمادي أزرق.. اللون الرمادي يجعل كل القطط سوداء أثناء الليل ويكسو النساء بأضواء زرقاء، يخرج أنفاسه بصعوبة وبحلاوة ونشوة عندما يحيطنا من التاسعة والنصف مساءً إلى الرابعة والربع صباحًا.

يحيطنا الليل ويلتف حولنا بنعومة رمادية زرقاء تشبه نعومة أجفان الرضّع!، في هذه الأوقات تصبح قلوبنا عمياء ومرهفة السمع تلتقط أنفاس الليل، تلك الأنفاس الرمادية والوردية الزرقاء، التي تحيط بنا مثل قلوب مرهفة السمع، وأينما كنا تصلنا تلك الرائحة الزرقاء الرائعة والمخدرة، في منهاتن أو في الأوديسا؟

هل تصلك رائحة اللون الرمادي الساتر الذي يجعل كل القطط تغني أغنية الأشواق حتى في مدينة روتردام؟!.. الرائحة الرمادية الزرقاء لليلة فاتنة، الرائحة الخمرية والنجوم ذات الندى التي تصنع من فتيات مدينة

مارسيه الفاسقات أجمل العذارى! حينما تتشبث تلك الرائحة تحت أجفانهن وفي خصلاتهن وفوق شفاهن؟

هل تصلك رائحة النهر الأزرق المتبخر بالسراب الذي يحجز عنا الأمس ويخفي عنا الغد؟!.. هل تشم رائحته في مدينة بومباي؟! ألا تفتنك نشوة الليل؟!.. ألن تفتك نشوة الليل؟!

أنزع قلبك وأرمي به في حجر الليل المحب، فأنفاسه أنعم من رموش الفتيات وسينير قلبك بسحر غير مفهوم!

إن الفْتيّة التي لا تعرف مشاعرها الكثير عن ذلك لا تتعذب ولا ترى في ذلك غير الظلام، وتمشي في الشوارع الممتلئة بالليل ضالة بدون كلام وبدون زمان!.. ربما يمشيان وحدهما ساعتين أو ثلاث مقتربين من بعضهما البعض، ربما يقتربان أكثر مع طلوع النهار، يطلع أحدهما أحيانا بكلمة عديمة الجدوى، وربما يجيب الآخر تخوفا من شدة القرب.. ليس من شدة القرب بل من ازديااده!.. ربما يمشون نفس الشوارع والأماكن الموحشة، لكنها الآن تبدو لهما شوارع وأماكن لها معالم أكثر وضوحا لأن النهار كان يخفي ملامحها، ربما يضلون طريقهما إلى ضواحي المدينة حيث يملأ الندى الحدائق والشوارع والمتنزهات بشكل غير معتاد في يوم الأحد.

لقد حلما الاثنان بالوقوف عند ضواحي المدينة بآذان صاغية وأحذية مبتلة، لكن ما هذا؟!

. ضفادع؟!

. هل تنق الضفادع هكذا بصوت عالٍ؟!

ـ إنهما ضفضعان يغنيان يا ليزا، ربما يغنيان بصوت عالٍ لأنهما يحبان بعضهما.

. يا سلام؟!.. يغنيان؟!

. اتركيهما في حالهما يغنيان، أرى أنه شيء جميل.

. أظن أنهما لا يغنيان، أنهما يضحكان ويسخران منا.

. لأن السماء تمطر منذ عدة دقائق ونحن لم نلحظ أي شيء!

. هل تعرفين أن أمطار الصيف مفيدة، خصوصا حين تسقط على الرأس! هذه الأمطار تساعد على النمو بسرعة!

ـ هل تودّ أن يزيد حجمك؟!، أنا لست أكبر منك في الحجم.

. حتى يصبح حجمي أكبر من حجمك يا ليزا!

. وهل يجب أن تكون أكبر حجما مني؟!

. لا أعرف!

لا يجب أن يدعي أحد أنه لا يحب الأمطار، فبدون المطر ستقتلنا الشمس، ليس لهذا الإدعاء حق، فكلنا نحب المطر!.. وهل هناك أغنية ليلية أفضل من غناءه؟! وهل هناك شيء بديهي قريب إلينا ومحب للكلام ومليء بالأسرار أكثر من المطر أثناء الليل؟!..هل طرشت

أسماعنا حتى لا نظهر اهتمامنا إلا بأصوات حركة الترام والحفلات الموسيقية وأصوات المدافع؟!.. ألا نسمع سيمفونية الملايين من قطرات المطر حينما تعزف وتصفق فوق الإسفلت؟!.. تزداد عشقا خلف النوافذ وفوق الأسطح، تهمس بآلاف الحكايات فوق أوراق الشجر وتتسرب فوقه لتسقط في دق وطبل.. تخبّط فوق أظهرنا على الملابس الصيفية الخفيفة، ألا نلتقط شيئا آخر غير إدعاءاتنا المفتعلة؟!

لكن الشباب البالغين تحكي لهم الأمطار حكايات ليلية، هؤلاء تبكي وتضحك لهم الأمطار فوق النوافذ، وفى آذانهم الوردية وتواسيهم في طريق عودتهم من أرض الأحلام.

أليس الصغار من الشباب هم من يهللون فرحا بتجمع المطر في بقع مائية سئلاً في أمواج بين الأحجار؟! أليسوا هم فقط من يبتهجوا بسقوط وانكسار الأمطار الغليظة فوق أنوفهم؟!.. أليسوا هم من يستلقون في أسرتهم وتخشع قلوبهم مستيقظين؟! حينما تسقط الأمطار وتبوح بالأسرار للدنيا كلها، أليست الأمطار هي التي تجعلهم يصمتون ويكبرون؟!

إذن فلنخلع عنا غطاء الكبرياء وكرامة البلوغ العفنة ونرميه فوق كومة حطب للحريق ..لنفتح لصدورنا الطريق

حتى تستقبل نسمة البحر والشمس، حتى تستقبل الأمطار، ولا يدعي أحد أنه يخشى أن يصيبه البرد!.

لا يزال تاجر الخضروات محتفظا بهدوئه حتى تجمعت

أول قوافل قطرات المطر في سيل متجهة ناحية السلم المؤدي إلى القبو، ظلّ في هدوئه حتى دفعت به من نومه ليخبط زوجته في ضلوعها المبطنة باللحم لتستيقظ في الحال!

حمل الاثنان في صمت وبدون تذمر صناديق الخضروات والفاكهة الثقيلة من داخل المحل ونقلاها إلى الفناء الخلفي الضيق للبيت.. في مثل هذه الأيام الحارة تبدو كل الأشياء ذابلة وحزينة، لكن هذه الأمطار الليلية تتولى مهمة غسيل كل الأتربة العالقة وتنظف محتويات الصناديق.

يضرب المطر بضع ساعات حوائط البيت بكل قوته مستخدما كمّا هائلا من القطرات.. في الفناء كان تاجر الخضروات وزوجته قد استلقيا للنوم مرة أخرى ومن فوق الوسائد بدا وجهيهما المستديران –كالتفاح . راضيان، تماما مثل قميص النوم الداخلي القديم الذي رقد في هدوء وسكون بين قوافل الأمطار بعد أن وضعته المرأة تحت السلم.. هذه القوافل التي تعلم الكثير عن العالم الخارجي، ويمتصها القميص الأزرق المصنوع من الصوف

في نهم شديد تعلقًا وتشوقًا بمعرفة ما هو حقيقي عن عالمه الوهمي فيخدع نفسه ويمتص الماء حتى يأتي الصباح ويجف السلم.. لكن القميص الأزرق سيبقى ممتلئا مثل سلحفاة ضخمة! وفي مدخل البيت:

ـ عظيم!.. لدينا الآن حجة قوية، ففي حالة سقوط المطر لن نستطيع أن نأتي في الميعاد مضبوطين، في رأيي أن هذا شيء رائع، أليس كذلك؟!

. إن كل شيء معك يكون رائعا، هل تشعرين بالبرودة؟

. ضعي الجاكت فوقك.

ـ وطبعا أنت ستصاب بالبرد غدا!.. لا! بل ضع الجاكت فوقنا نحن الاثنان، سيدفئ بعضنا البعض.

. هل تسمعين؟!.. مازالت الضفادع تنق!

. ربما لم تبرد الأمطار نار حبهم.

ـ لا أعرف مدى مصداقية الضفادع؟!، لكن لديهم قدرة هائلة على الاستمرار في النقيق.

لكن حبى لا يمكن أن يفتر ولو بسقوط عشرة سحب مليئة بالأمطار، بل سيزيد حبى أكثر!

ـ ومن هذا الذي تحبه هذا الحب؟!

ـ شخص يقف معي أسفل جاكتتي وشعره مبلل وقدماه حافية.

. آه!.. دعنا نتحدث عن شيء آخر الآن، أنت ترى أننا نقف في الظلام وحدنا ومقتربين بشدة من بعضنا

البعض، أليس ذلك كافيا؟!، أرجوك دعنا نقف في صمت، أليس هذا أجمل بكثير؟!

ـ طبعا أن ذلك جميل، نحن نقف وحدنا في مكان مظلم تحت الأمطار، فعلا جميل!

بعد مرور سبعة وعشرون دقيقة.

ـ هل تعرف أن الأمطار ملاك حقيقي؟!.. أمي كانت ستثور بشدة لو علمت أنني قد تزينت للخروج وسنى سبعة عشرة، أتزين مثل النساء التي.....!، هذا ما كانت أمي ستقوله!، ولكن المطر غسل كل شيء ولن أحتاج إلى استخدام المناديل، أليس المطر ملاكا؟!

بعد أحدى عشرة دقيقة:

. ليزا، هل ترغبين في الذهاب إلى البيت؟

. لا.. وأنت؟!

. ما هذا الكلام الغريب؟!، نحن الاثنان لا نرغب في العودة إلى البيت؟!

. نعم! وأنت تعرفين أن المطر هو ملاك حقيقي!

العاصفة

اخضـــرّ لون السماء فشممنا في الهواء رائحة الخوف والبيرة الممتزجة برائحة البطاطس المحمرة، وسادت رائحة الناس في الشوارع الضيقة والممتدة إلى ما لا نهاية، طلت من البيوت زهريات ونوافذ مفتوحة لغرف النوم.

واصفرت السماء مثل السمّ فانخرس الكون بأكمله في حالة من الضيق، مرّ باص متهالك فأحدث صوتا يشبه سعال مريض الربو وخلّف وراءه رائحة غاز تعلقت في الهواء، وبدا نهر الألستر بنصاعة باهتة تشبه بهتان عين حيوان خائف ينظر إلى السماء بين زخم البيوت!، يبدو أن النهر عرف مصيره الحتمي، بدت نصاعة النهر وكأنها حدثت بسبب قفز آلآف الأسماك إلى أعلى خارج مياه النهر.

أبراج الكنائس اقتربت من الأرض حتى انحنى شكل المدينة بأكملها، مرّ حلزونيان (تلفريك) على حائط أحد البيوت بجانب بعضهما البعض في هدوء، كان الاثنان قد تصلبا أمام بعضهما لمدة ساعات على أمل أن يغير

أحدهما مساره ثم تباعد الاثنان فجأة في نفس اللحظة ليأخذ كل منا مسرا مختلفا تاركين ورائهما على الحائط خطا
لزجا له لون فضي.

لم يصدر من جميع طوابق البيت أي صوت حتى زاق باب وسأل طفل في البيت عن شيء ما، كان هذا هو كل ما حدث، وأخذ قلبان يدقان في منور البيت، قلبا شاب وشابة في اللحظة التي تحرك فيها الحلزونيان مسافة نصف ذراع عن بعضهما، حركت فجأة الرياح نافذةً وأغلقتها بصوت عالٍ وهبت بصريخ حاملة معها بعض الأوراق الملقاة عاليا وحرّكت علب الصفيح الفارغة في خشخشة فوق الشارع المصنوع من الحجارة وأخذت تعوي بصوت مائة كلب جائع! سائرة في طرق المدينة المشلولة، تساقطت حبات مطر برد في إيقاع ثابت فوق الشوارع.

بدأت الصاعقة فأحدثت شرخا في السماء، أمسكت الفتاة بيد الشاب ووضعتها فوق صدرها، تعال صوت الرعد فوق أسطح البيوت وأغلق الشاب والفتاه عيناهما لمدة لحظات.

كان الشاب مثل كل الرجال، حيث لم يرغب فقط بالاحتفاظ بالوضع المكتسب بسهولة الذي وصلت إليه يده، بل ودّ في الحصول على المزيد فوضع لهذا يده

الأخرى بجانب الأولى وأراد ضم الكل إليه، على اعتبار أن العاصفة كانت بمثابة حظهما الوقح!ولكن الكل أو الفتاة! نظرت إليه وكأنها تراه لأول مرة، أومأ لها برأسه بشجاعة:

. نعم لقد فعلت المرغوب فيه!

سحبت يديه بسرعة في صمت، ولأنها فهمته تنفست في ضيق وقالت:

. لم أعد أفهمك!

تركته وغادرت المكان للخارج في المطر. كان الشاب مثل كل الرجال، نظر إلى قطرات المطر الغليظة المتساقطة ورفع كتفيه مندهشا وحدّث نفسه قائلا: "أنا أيضا لا أفهمها!"

هز رأسه يمينا ويسارا وأخذ الحلزون وأعاده إلى مكانه الذي كان فيه منذ ساعة، مسح يده في سرواله وجلس مُنهكا على سلّم البيت وأخذ يعض بضيق فوق شريط مطاطي كان معه، بعد قليل أنطفأ البرق وتخلص الرعد من ضيقه، وتحرك النهر مثرثرًا وضاحكًا وقد ملأته حبات المطر الغليظة، أمتلئ الجو برائحة مثمرة، بخليط بين رائحة الحليب والأرض، وخطوط الأشجار بدت نظيفة بلونها الأزرق الرمادي الذي يشبه جلد الفيلة بعد استحمامها وخروجها من الأنهار، وفي شارع جانبي مرّت سيارة مسرعة فوق بركة من الأمطار.

نظر الشاب في ضيق نحو السماء، كان القمر هلالا والسماء كلها مثل زجاج نافذة تم غسله وتنظيفه على التو، وشعر الشاب بنعومة الهواء كالحرير، ورسمت النجوم لوحة بديعة لليلة القادمة، بينما كانت الأشجار والزهور والحشائش مازالت تتناول شرابها، كان الرعد الأخير ضعيفا جدا، وكأنه طفل صغير يجرّ كرسيا فيحدث صوتا واهنا!

السور

وأخيراً تتبقى الرياح عندما لا تكون كل الأشياء!: الدموع، الجوع، الموتور والموسيقى، في كل هذا لن يتبقى غير الرياح، إنها تدوم فوق كل الأشياء!: الحجارة، الشارع وحتى فوق الحب الأبدي.. ستغني بنوع من المواساة داخل العشب القاحل فوق مقابرنا المغطاة بالثلج وستقع في حب الأزهار الحلوة لتأخذها لعبا ورقصا، اليوم وغدا ودائما.

هي السيمفونية الكبيرة، الأولى والأخيرة، وزفيرها هو اللحن الخالد الذي يغني فوق المهد واللحد وبجانب أزيزها وهمسها ورعدها لا يدوم شيء آخر، بل حتى الموت نفسه لايدوم معها، لأن الرياح تغني فوق الصلبان والعظام وبسببها تسقط الأزهار وحينما تغني توجد الحياة! ثم تسخر الرياح والأزهار من الموت ذي العظام.

حكيمة هي الرياح، لأنها قديمة مثل الحياة!.

حكيمة هي الرياح، يمكنها أن تخرج أنفاسها ممتدة وبلطف وعندما تشاء يكون لزفيرها قوة لا يصدها شيء!

كان السور وحيدًا متهدمًا، كان يخص بيتا في يوم من الأيام والآن أصبح يقف مهتزا ناظراً إلى بعيد، فارغ العينين باحثًا عن معنى لحياته يشد نفسه إلى أعلى نحو ظلمة السماء، مُهمَلاً، مذعنًا ويشعر بالتهديد.

أخذته رياح المساء بين ذراعيها الناعمة، تهدج صوته منخفضًا ثم تنهد، كان عناقها دافئاً وناعمًا فهو الآن عجوزًا متهالكًا حزينًا وقد أراحه ذلك،! لأن ذراعيها كانتا ناعمتان.. تنّهد مره أخرى فسألته الرياح الشابة في رقة:

. ما بك؟!

تنهد السور العجوز مره أخرى ثم قال:

. إنني وحيد.. عديم القيمة.. إنني ميت!

ـ بل أنت حزين لأنهم تركوك ونسوك وقد قمت بحمايتهم طوال حياتهم في مهدهم وفي حفلات زواجهم وحتى في لحودهم ولكنهم نسوك.. اتركهم فهذا العالم ناكرًا للجميل!

كانت الرياح الشابة حكيمة – حكمة العرفاء ..، حينئذ قال السور:

. نعم! لقد نسوني، لقد فقدت أهميتي آه منهم ناكري الجميل هؤلاء البشر!

أخذت الرياح في حثه:

. فلتنتهي من هذا الأمر!

تسائل السور العجوز:

. لماذا!!

همست له الرياح:

. أنتقم لنفسك!

. كيف إذن؟!

كان بوده أن يعرف كيف يفعل ذلك فغمغمت له الرياح بلطف:

. إنهار!!

فرّد السور مرتعشا:

. لماذا؟!

مالت الرياح الشابة قليلا نحو السور ذي العظام المتصلبة فرأى كيف تسارع المارة مبتعدين من أسفله عند قدميه، هؤلاء البشر ناكرو الجميل!.. وأرتجف جسد السور العجوز الوحيد عندما رأى الناس ثم سأل الرياح:

. هل أنهار؟!... هل يمكنني أن أنهار؟!

تكهنت الرياح الحكيمة قائله:

. إذا كنت تودّ فأنت تستطيع!

تنهد السور:

. أريد أن أحاول.... نعم!

. إذن فلتنهار!

صرخت الرياح وخطفته بين ذراعيها الفتيّة وانحنت به واندفعت أكثر لترفعه إلى أعلى ثم كسرته وابتعدت عنه

فأنهار!! .. مالت بعد ذلك كرّة أخرى لتبتعد عنه. وبعيدا أسفل السور اكتظ ناكرو الجميل هؤلاء البشر الخائنون الذين ينسون بسهولة!.. لقد كان السور وفيّا لهم طوال حياة كاملة عندما رأى –السور . هؤلاء البشر الصغار يهرعون مسرعين نسي كل كرهه و لأنه كان يحب الناس!، هؤلاء الناس المسرعون الصغار، شعر بأسف شديد وكان بوده أن ينهض في لحظاته الأخيرة.

في تلك اللحظة كانت الرياح على حذر فركلت السور العجوز المتهشم بقدميها ليسقط محطما وصارخا فوق الشارع، سقط السور فوق سيدة عجوز و طفلين وشاب كان عائدا للتو من جبهة الحرب ... صرخ السور الخائر بصوت عالٍ وسأل الرياح متصدعا بينما كان يأخذ ما تبقى له من أنفاس:

ـ لماذا؟!... لماذا فعلت هذا؟! إنني كنت أحبهم حقا!

لكن الرياح ضحكت عندما كان السور في سكرة إحتضاره.. لقد كانت لديها القوة الفائقة وتلك الحكمة العتيقة حتى تسخر من الحياة، إنها كانت تعرف أن الأمور سوف تسير على هذا النحو ولم يكن لها قلبا رحيما، تلك الرياح الشابة التي تكون رقيقة فقط عندما تريد، هكذا غنت أغنية السور العجوز في نومه الأبدي عندما مات متنهدا لأنه قتل أربعة من البشر.

ضحكت الريح الشابة مرّة أخرى فهي تدوم فوق
كل الأشياء، تدوم فوق الحجارة والشارع وحتى فوق
الحب الأبدي!

الجزء الثاني

غريب!

١

قال طالب الثانوية العامة هانز هيلكوبف لنفسه بعد استدعائه في الحرب: غريب! أن قائد الوحدة يذكرني برئيس اتحاد الطلاب في المدرسة.

٢

قال طالب الثانوية العامة هانز هيلكوبف لنفسه بعد انتهاء الحرب: غريب! أن رئيس اتحاد الطلاب مازال يذكرني برئيس الوحدة!، ربما يرجع السبب إلى طريقة قص شعرهما؟!

٣

قال رئيس إتحاد الطلاب د. أولاف إلى زميله:

ـ من الغريب إنني دائما ما أتذكر جنود كتيبتي مع رؤيتي لطلاب السنة النهائية الثانوية يتقدمون للتجنيد!، ربما يرجع السبب إلى وجوههم المعتدلة والناعمة؟!

سأل زميله:

. هل السبب هو الوجوه؟!

رد قائلا:

ـ بل أنها أحذية التجنيد يا عزيزي!، إنها أحذية التجنيد!

مجد بروسيا

أخذ الرأس الأصلع يسبح في ضوء الليل الباهت فبدأ وكأنه قمر ساطع أو ناصع، يسبح في الصالة الحمراء للمصنع، يسبح تحت ضوء ليلي باهت وكأنه وجه شاحب معلق من أعلى.. تحرك تحت الرأس جسد نحيل لشخص مستقيم كان يرمي بساقيه عاليًا في الهواء وخطواته كانت تصدّ برودة الحوائط العالية بضربات قوية قادمة من السقف إلى الأرض، صوت الضربات كان يدوي بقوة فيشعر معه المرء وكأن كتيبة كاملة من الجنود تتحرك في الصالة، ولكنه لم يكن أكثر من جسد نحيل ورأس صلعاء لشخص مستقيم بساقين طويلين يؤديان الخطوة العسكرية في وحدة تامة، الساقان الطويلان يتحركن بالخطوة العسكرية وبرأس محلوق يشبه قمر نحاسي يسبح في الصالة، صالة المصنع التي جعلها الليل شبة مظلمة.

تبادل الساقان مكانهما بانطلاق في الهواء، لقد قام هذا الشخص النحيل بالحركة العسكرية على أكمل وجه وبدون عيب، في هذه الصالة الضخمة الممتدة على شكل مستطيل، ترتفع الساقان إلى أعلى في تبادل ليقدمان نموذجا رائعًا ومثاليًا للمشي بالخطوة العسكرية، عرض نموذجي يظهره هذا الشخص النحيف ذو الرأس المحلوق اللامع كالذهب في ضوء الليل الخافت، ساقان فارعان يتحركان على إيقاع الموسيقى العسكرية العازفة على مجد وشرف بروسيا: تاتا تاتتا.

وفجأة تتوقف الموسيقى العسكرية ويخرج من الرأس شيء معيب يشبه صوت النساء وينطلق في الصالة كرصاصة مصوبة على قلب الصمت ويفزع الليل بصيحته: . كتيبة قف!

توقف الشخص النحيف وكأنه عمود من الحديد في الصالة، فخرج نفس الصوت النسائي مرة أخرى من الرأس،رصاصة منطلقة!: . إلى اليسار درّ!

رمى النحيف ساقه اليمنى إلى أعلى واستدار بجسده ليلتف ناحية اليسار بسرعة، وحملقت عيناه الرماديتان في الفراغ ناحية الحائط الذي كان به نافذة طلّ منها الليل ناظرًا إلى الشخص النحيف، وطلع الصوت ثانيًا وأصدر طلقاته في الصالة الشاغرة، طلاقات نسائية مثل صوت الصفيح في الليل الصامت: . أرفع السلاح!

ارتفع الذراعان إلى أعلى بعد أن تشبثا طوال الوقت بقوة على الجانبين وأخذا معهما السلاح إلى مستوى الصدر، لم يسمع صوتًا واحدًا في ليل هذه الصالة حتى صدر الصوت النسائي مرة أخرى من الرأس يُدويّ مثل الطبل الصفيح منظما إيقاع الخطوة العسكرية العازف على مجد بروسيا وشرفها: . دا دادادادا.

لملم الليل بقاياه متواريا في أركان الصالة ويجري فأران كبيران بعينين محمرتين، في موكب متتابع أمام الشخص النحيف، مجد بروسيا! .. فأران في صالة الصمت، يأتي عزف موسيقى الطبل الصفيح من الرأس الأصلع، مجد بروسيا: . دا دادادادا.

خارج النافذة انفرج وجهان في فرح وشماتة مما حدث بالداخل، ضحك شخصان يغشاهما الظلام، ضحكا مكتوما ثم ابتعدا عن النافذة فابتلعهما الظلام .. وفي الشارع من بعيد سمعا الصوت النسائي الوحيد يتردد داخل الصالة:

. تا تا تتتا...

في صباح اليوم التالي تم استدعاء الشخص النحيف المستقيم إلى غرفة المكتب، جلس في الغرفة فوق المكتب رجل بوجه نائم، وبجانبه منديل وسخ، وقائم خشبي ممتلئ بالملفات الورقية، كانت ملامح الوجه مختلفة تماما بسبب طبيعته النائمة، ورغم أن فمه كان

الشيء الوحيد المستيقظ في وجهه إلا أن شفته السفلى تدلت متعبة، كان لصوته مسمع رخو ناعم وهادئ بشكل مريح وفُتح الفم متثائبا في إتجاه الرجل النحيف الذي وقف باستقامة شديدة أمام المكتب ونظر من عينيه الرماديتين إلى المنديل، اشتدت استقامة الرجل النحيف حينما توجه الصوت الناعم نحوه:

. هل أنت حارس ليلي؟

. نعم يا أفندم.

. إلى متى؟!

. حتى نهاية الحرب.

. وقبل ذلك؟"

. مجند.

. ماذا؟!

. عريف.

. شكرا.

وقف النحيف مثل عمود أمام المكتب مشدودا بدون حركة وكأنه ميت، فقط عينيه راحت تجوب من وقت إلى آخر متطلعة إلى الفوطة في حزن، ومرة أخرى أتى الصوت الناعم والنائم من المكتب متوجهًا إليه:

ـ بالأمس تم اقتحام المصنع وسرقته، هل كنت نائمًا؟!

صمت العمود!

. إذن ماذا كنت تفعل؟!

صمت العمود!

اهتز الصوت الناعم مع حركة وجهه من اليمن إلى اليسار في استياء:

ـ كما تريد.. غدا ستقام المحاكمة، وستأتي كشاهد في القضية.. لن يكون الأمر خيرا يا سيد! هل اشتركت في السرقة؟!

ابتسم الوجه النائم ابتسامة حلوة، وظل العمود واقفا كما هو في ثبات وصمت، وتثائب الصوت الناعم قائلا:

. كما تريد، غدا يجب أن تنطق بالكلام، فإما أنك كنت نائما أو اشتركت في الجريمة، وأتمنى أن يُصَدّقك أحد في المحاكمة، يمكنك أن تذهب الآن.

التّف النحيف إلى الخلف متوجها ناحية الباب، ولكن عاد مرة أخرى متوجها إلى الوجه النائم ومال برأسه قليلا ثم سأل:

. هل ستكون المحاكمة علانية؟!

ازدادت نعومة الوجه النائم وهمس قائلا:

. نعم ستكون علانية يا سيد!

ردد النحيف مكررا هازًا رأسه:

. ستكون علانية!

تثاءب الوجه النائم مرة أخرى مؤكدًا.

. نعم علانية.

فتح النحيف الباب وخرج وظل واقفا في الخارج، أخذت الفوطة المتسخة بالداخل تهتز قليلا بسبب تيار الهواء الذي جلبه فتح الباب، قال النحيف لنفسه بعد أن أمسك في يده شيئا معدنيا:

"علانية!"

واحد، اثنان، طقطق شيء، رأى النحيف وجهان ضاحكان في سخرية، ورأى قاعة محكمة ممتلئة عن آخرها، وعاد إليه الوجهان الساخران بعد سخرية كل الحاضرين في القاعة مبتسمين، وحدّث نفسه في هدوء:

"فليحيا مجد بروسيا، مجد بروسيا وكل المدينة حاضرة."

طقطق الشيء المعدني في يده التي رفعته نحو الرأس الصلعاء، بعد لحظات كان النحيف المستقيم راقدا في صمت على الأرض مثل عمود مكسور، وبجانبه الشيء المعدني، رقد الرأس وكأنه قمر قد أنطفأ في الغرفة المظلمة، تحركت من حوله كتيبة لا ينتهي عددها تتحرك على عزف موسيقى لمجد بروسيا، موكب جليل يمر ويمر: تا تا ت تتا.. أم أن ذلك الصوت كان

صوت المطر، فالسماء كانت تمطر على قوالب البناء الحمراء طوال الوقت بدون انقطاع.

ذبابة اسمها.. شينج لينج

قد ترى أن اسم شينج لينج هو اسم جميل لا يتناسب مع ذبابة تافهة، أجدني في هذه الحالة يجب أن أحكي لك حكاية حصول الذبابة شينج لينج على اسمها المميز، وبعد ذلك ستتأكد أنه اسما مناسبا لها، أستمع أرجوك!:

هل دخلت طيلة حياتك السجن.. مرة أو مرات؟!.. معذرة! بالتأكيد شيء كهذا لم يحدث لك، رغم أنه يمكنني أن أؤكد لك أن الوصول إليه أسهل من الخروج منه بكثير!!

لقد عرفت من المحاكمة أنني أهنت شخصا هامّا بتعليق سخيف على كلامه، ويبدو أنني لا أتذكر هذا الأمر على الإطلاق لأنني كنت في حالة سُكر، ويمكنني نصحك بجدارة أن لا تفعل أبدًا شيئًا كهذا، بل أظنّ أن هاملت نفسه يؤمن أيضا بما أقوله لك!، خصوصا أنه شعر أيضا بشيء سيئ يحدث في دولة الدنمارك.

أيضًا هاملت لم يُسمح له بفعل ذلك!، رغم أنه كان... على العموم هذا شيء غير مهم ذكره، المهم

الآن هو أن تعرف كيف حصلت الذبابة على اسم شينج لينج؟!

جلست قابعا في زنزانة قاعة المحكمة وشعرت بوطأة التُهم الموجهة إليَّ.. كنت منكسرا وأحاطني سراب أظلم نفسي ومعنوياتي، أخذت أحملق أمامي بمعدة خالية من الطعام في حالة من استرخاء الحكماء نحو حائط غير مدهون، وفجأة مرّت ذبابة صغيرة وعادية جدا أمام شبورة عيني لترقد على الحائط، أو بالتحديد لتقف لأن الذباب لا يمكنه الرقود!.. جاءني فجأة شعور بأنها مثل نقطة حبر شاذة سقطت فوق الكراسة المدرسيّة لمادة الرياضيات.

تذكرت سريعًا الأوقات المظلمة والقديمة من طفولتي حينما تم إلغاء عدة أيام من زيارة جليسة الأطفال وسألتها بكل أدب، إن كان يمكنني أن أساهم في خدمتها، لقد عاقبتني باحتقار تماما كما تفعل هذه الذبابة معي!، هل كانت تعرف شيئا عن قضيتي؟!، لا أظن! بالتأكيد أنها اختارت لنفسها فقط مكانا هادئا لتقف فيه لمدة دقائق دون إزعاج من الطبيعة الخارجية، والذبابات الفاتنات لا يحببن الإزعاج، لم أكن شهمًا حتى أبتعد بنظري عنها وأتركها في حالها، بل أخذت أنظر إليها بكل وقاحة، ويبدو أن ذبابتي الصغيرة قد أدركت تأثير جمالها عليَّ ولهذا تركتني طوال الوقت بدون كلمة أو إشارة وأخذت

تهـز كتفيهـا فـي انـدهاش وتعـالّ، حرّكـت إحـد أقـدامها بنعومة تحت الأجنحة الزجاجية وأخذت تمسح به بعناية، وكأنها راقصة باليه تمسح حورب قدميها الشفاف وتشده جيدا فوق جسدها، ولكن بالطبع ليس بقدمها، وأخيرًا هـزّت رأسـها بطريقـة سـريعة وغريبـة أوحـت برضـائها عـن مظهر أجنحتها، ربما تأكدت أنها تناسب موضة العصر!، بعد ذلك توجهتُ بهمة ناحية أقدامها لتقوم بعمل عناية بالقـدم والجسـد أو البـاديكور والمـانيكور، وكأنهـا اليـوم على موعد مع بارون الذباب حتى تفتنه أو على لقاء مع أغني ذكر ذباب في العالم!.. كانت الإضاءة خافتة جدًا فلم استطع التأكد من اللون التي طلت به أظافرها، هل كان أحمر أم أزرق؟!

هزت رأسها مرة أخرى بنفس الطريقة بعد أن نظفت قدمها الثالثة من اليسار بسرعة ثم توجهت لعمل مكياج وجهها!.. شعرت بخوف شديد وتصببت عرقا مع رؤيتي لطريقة ثني الذبابة لرأسها لأنه جاءني أحساس بأن الرأس ستنفصل عن الرقبة، وأهم ما في الذبابة هو طبعًا رأسها!، أخذت تقوم بتمشيط شعر رأسها القصير بعناية ونشاط ثم قامت بعمل تدليك لرقبتها الرفيعة مستخدمة في ذلك طرفـي قـدميها، فـي هـذه اللحظـة توقفـت أنفاسـي مـن الخوف على الرقبة ولكن لم يحدث لها شيء وأكملت مهمتها بنجاح!، بدأت في تجميل العينين، فمشّطت

الرموش ورفعت الحواجب ولم تنسى أن ترمي لي بنظرة دلال من طرفي عينيها!.. أرتجف جسدها في رعشة، ربما تكون قد وضعت البودرة على جلدها وحينما انتهت وأصبحت في قمة أناقتها تحركت بعض خطوات في اختيال أمام عيناي!

في الحقيقة لا أعرف حتى الآن كيف جائتنى هذه الفكرة البشعة!، بالتأكيد أنها الذبابة!!، أثارتني بشيء ما، أو ربما يكون هذا هو طبع عادي دفين في نفوس الرجال، وقد يكون السبب هو غريزة الصيد أو العودة إلى سنوات المراهقة والطفولة؟!

المهم أن الأداء المتحرك والمستفز للذبابة قد تسبب في تحول يديّ بشكل تلقائي إلى وضع الاستعداد المشهور لصيد الذباب، اقتربت في حرص شديد من ضحيتي التي لم تشعر بشيء، ونبع عن عقلي بعض الأفكار المفسرة لوضع يديّ الغريب! قلت لنفسي: سأقوم بالقبض على الذبابة مثلما تم القبض عليَّ، إنني أريد أيضا أن ألعب لعبة تحديد القدر، أريد أن أكون قدر الذبابة، وأمارس عليها قرار الحياة والموت!.. اقتربت يديّ . صاحبة القدرة والربوبية المزعومة . لتقبض عليها لكنها فجأة قبضت على الهواء الفارغ!، وإذا بنقطة الحبر السوداء تقف في مكان آخر في أعلى الحائط على بعد بضع سنتيمترات قليلة من قدرتي على الوصول إليها.

سقطتُ محبطًا في انهزام داخل أفكاري الغبية وسار بداخلي ضيق خانق كالرعد يحدثني قائلا:

"ألم تهز الذبابة رأسها لتبتسم ساخرة منك؟!"

هذه الذبابة التي كنت على وشك تشويه وجهها الساخر بحذائي، وإذا بها الآن تتحدث معي بصوت رفيع وأسلوب هادىء لا يخلو من الحكمة، صوتها كان يذكرني بصوت معلم الدين في المدرسة، قالت لي:

ـ أرأيت!، كنت تريد أن تكون قدرى، فهربت منك أيها الغبي!، الكل يدرك قَدره ليسير عليه، حتى لو كان قدره بضع سنتيمرات قليلة، لكنها مسافة كافية جدا لعدم وصول شخص مثلك إلىّ ليسقط فى أعماق عالمه المحبط، أتمنى أن تدرك ما قلته لك!

قلت لها:

ـ لقد ضحكت عليَّ أيتها الذبابة الملعونة!

أجابتني بكل هدوء:

ـ هذا هو الحال يا تافه!، لابد أن نضحك على أقدارنا حتى نكتشف أن الأصل في الحياة هو الضحك الكوميدي وليست الدراما الحزينة!

إتخذتْ وضع الرحيل وهزت لي رأسها بسرعة ورحلت مثلما جاءت من نفس المكان.

فكرت فيما بعد في كلمات الذبابة أكثر من مرة واكتشفت أنها كانت على حق، فالكل يجب أن يدرك قدره ليسير عليه!

كنت أتذكر ذبابتي الصغيرة كثيرا، هذه الذبابة التي دخلت مثل شعاع شمسي في ظلام نفسي، وأعطيتها اسم شينج لينج، وهو اسم يعني باللغة الصينية :" المناخ السعيد".

ماريا.. كل شيء من عند ماريا!

كنا نرغب فعلا في قتله عندما خلع حذائه، لاحظنا مباشرة بعد دخوله الزنزانة ظهور رائحة كريهة تشبه رائحة الحيوانات المخلوطة بالتبغ والعرق والخوف والجلد.. كان بولنديا، أشقر، ثقيل الظل كالجنس الجرماني، والرجال الشقر تحديدًا بهم دائما شيء من التفاهة، هو أيضا كان كذلك!، بدت عليه نوع من التفاهة والسذاجة، لم يتحدث غير بعض كلمات قليلة باللغة الألمانية، كانت معه طوال الوقت صورة جميلة ملونة وضعها في جيبه، صلى لها أوقات طويلة، ووضعها بجانب الكوب الذي يشرب منه، كان يصلي بالبولندية وبصوت عالٍ للصورة الملونة المحاطة بإطار ذهبي.. صاحبة الصورة كانت سيدة شابة ترتدي فستان أزرق وغطاء رأس أحمر والفستان كان مفتوحا عند الصدر فأظهر جزءً من ثدييها.. كانت صغيرة الحجم، ولديها قدرة كبيرة على جعله يصلي لها، حول رأسها كانت هناك هالة شمسية، إلا أن ملامح وجهها كانت جادة، هذا هو ما شعرنا به، كان البولندي يناديها باسم "ماريا" ويحرك يده بطريقة أوحت وكأنه يريد أن يقول: ألا ترون عظمتها!!.. عندما

كان ينطق باسمها كان يبتسم ابتسامة ساخرة، ربما كان يقصد إظهار ابتسامة ناعمة توحي بالصلاح، لكننا كنا نكره ابتسامته التي شعرنا أنها ساخرة خصوصا مع نطقه لاسمها: ماريا!

حينما خلع حذائه في الليلة الأولى كنا نريد فعلا أن نقتله، الكلابشات المغلقة حول معصميه جعلته يحتاج إلى ساعة زمن كاملة لينتهي من خلع الحذاء، فمن الصعب فعل شيء كهذا مع وجود الكلابشات، والأصعب من ذلك هو حك الوجه!، وفي الليل يتم إغلاق كلابشات حول أقدامنا، البولندي المحكوم عليه بالإعدام كان أيضا يبدل أشيائه، ويخلف لنا رائحة رائعة في الزنزانة، ثم يقترب منا مثل غجري مُلح، جريء لا يمكن صده، حاد وحامي الطباع وشديد الغرابة عنا، لا يمكن ادعاء أنه شرير، ولكنه استطاع أن يفعل بنا ما يحلو له، كان البولندي يجلس بيني وبين بوالين و ليبج، نظرتُ إلى ليبج فنظر إليّ وتطلع بنظره خارج النافذة ثم قال:

. بولندي!

في الأسبوع التالي وقف ليبج تقريبًا طوال الوقت على أطراف أصابعه عند النافذة ناظراً إلى الخارج، لم يتكلم أكثر من ثلاث أو أربع مرات طوال اليوم! وعندما خلع

البولندي الجديد حذائه مرة أخرى نظر إليّ وكأنه يريد أن يبكي وقال:

. بولندي!

بالتدريج أخذنا نعتاد عليه وعلى رائحته، رائحة البولنديين (يا ترى كيف كانت رائحتنا)، لكن المشكلة أنه كان يحتاج لساعة كاملة حتى يخلع حذائه!، وكان ذلك هو الاختبار الحقيقي لنفاذ صبرنا، لكن الكلابشات كانت هي السبب، ولم نستطع قتله!، كان يحصل على ساعة من الزمن لينتهي من خلع الحذاء!

وضع قطعتي القماش بلون الكريز الأحمر تحت رأسه متخذًا إحداهما كوسادة للنوم، طبعا بدا رائعا وجميلا بشعره الأشقر ولون الكريز الأحمر، عندما رأيناه يفعل ذلك في أول مرة كنا نريد قتله!، وليبج كان على وشك أن يقول "بولندي" لكنه اكتفى بالصمت ورأيت فتحتي فمه تتسعان وتضيقان، أعتدنا مع الوقت على قطعتي القماش ووسادته الحمراء.

حينما دخلوا علينا بطواجن الطعام كان هو مستغرقا في صلاته، فجأة التفت إلينا وجهه الذابل من محرابه المظلم ونادى علينا وسط تراتيله:

. مربى.

لم نفهم ما يقصده، ربما يكون ما قاله كلمة غريبة باللغة البولندية، لكنه قفز من مكانه غاضبا، قفز قفزة بولندية ووضع طبق فخار في يد ليبج وقال:

. المربى، إنها المرابى، بالله عليك"

ثم التفت بعد ذلك إلى محرابه مرة أخرى وأخذ يصلى من جديد، وكزه ليبج بقدمه من الخلف وألقى صارخا أطول خطبة في تاريخ الزنزانة رقم ٤٣٢ وحاول حتى يضايق البولندي أن يكلّمه باللكنة البولندية:

. أه منك أيها الحيوان التعيس، يا منافق يا خنزير، لم تفلح إلا في أن تصرخ فينا بكلمة "المربى" كنا نظن أنك تصلى ووصلت إلى السماء السابعة مع العذراء ولكنك كنت تتصنت علينا، لتهجم على الطعام بمجرد وصوله وسماعك لكلمة المربى، أه منك يا بولندي يا ناقص!

نهض البولندي من مكانه وقال:

. ماذا تريد مني؟! أذن بالخارج وأذن بالداخل، المربى بالخارج والعذراء في الداخل!

قرّب الصورة من ردائه ناحية صدره وقال:

. هنا بالداخل حيث القلب!

لم ينطق ليبج بكلمة أخرى، أعطاني طبق المربى ولم ينظر إليّ، بعد ذلك بربع ساعة فُتح باب الزنزانة وتم توزيع القهوة والخبز والمربى مرة أخرى، لم يكن هناك حصة من الجبن لأن المربى حلت مكانها.

إنشغل البولندي أيضا بماريا أثناء الليل، وانشغلنا نحن بحشرات البق والنساء ذات العيون والأظافر الجميلة، كنت أشم رائحة تشبه الحلوى أو المكسرات مع ضغطي فوق البق لقتله، رائحة النساء التي نسيتها منذ وقت طويل! رائحة الدم الطازج، كانت النساء تجعلنا نرقد ساكنين أثناء الليل بينما دفعنا البق للسب واللعن حتى مطلع النهار.

البولندي هو الوحيد الذي لم يسب ويلعن، رأيته في الليل يمسك الصورة بين يديه، كنا نلعن العالم النتن الذي يحيط بنا وهو كان يردد في هدوء أثناء الليل مناجيًا: ماريا، يا ماريا.. مع طلوع الصباح أعتدنا على مرور بعض البط الطائر بجانب النافذة متجها من بحيرة إلى أخرى، ليبج كان يصحو ويقول متثائبا في كل مرة:

. أه لو كنت بطة!

بعدها كان كل شيء يعود إلى طبيعته، ويمتلئ المكان مرة أخرى بالبق واللعنات والنساء، ويردد البولندي خلسة في هدوء: ماريا.. يا ماريا.

في إحدى الليالي استيقظنا على صوت خبط بباب خزانة الأطباق، كان البولندي يقف هناك ويمضغ طعاما، كنا على يقين من أنه يقوم في الليل ليلتهم بقية الطعام الموجود، وقف أمام الخزانة وأخذ يمضغ، انتفض ليبج

من جوال نومه وأمسك بشعره من الخلف ولكن البولندي قال سريعا قبل أن يستطيع ليبج أن يفعل شيئا آخر:

. الجوع يا بني أدام!

تركه ليبج مرة أخرى ورقد مكانه ولم يقل كلمه واحدة إلا بعد ربع ساعة حينما لعن في هدوء قائلا:

. هؤلاء البولنديون! كنا الأسوأ من ذلك كله!

كانت معاناتنا معه أثناء النهار، خصوصا مع سماع مرور أقدام قوية تتحرك نحو الزنزانة، حيث كان يسرع بترديد تراتيله بصوت عال، كان محكوما عليه بالإعدام، ودائما ما يتم إحضاره مع تغير النوبتجية، ومع انتهاء التغيير كان يُسمح له بالبقاء على قيد الحياة، كان يُحضر عشرات المرات طوال اليوم، وكان يُكتب له في كل مرة عمر جديد!، لأنهم كانوا يمرون طوال اليوم بجانب الباب ومع ابتعاد الخطوات كان البولندي يقطع تراتيله و يتنفس الصعداء وينظر إلينا ويقول:

ـ ماريا، ماريا في كل شيء، إن السيدة البتول تساعدني دائما.

فعلا كانوا يمرون طوال اليوم وفي كل مرة يتطلع إلينا في هدوء روحاني قائلاً:

. ماريا وراء كل شيء!

كان مسمع جملته هذه يطلع علينا وكأنه يردد جملة خطر مثل" ياه، ياه يا سلام!"، لقد أصبانا الأمر فعلا

بحالة من الجنون خصوصا مع ابتسامته تلك، وفوق حاجبه تكورت قطرات مائية أخذت تتدحرج إلى أسفل.

وفي إحدى المرات أخذوه بالفعل، أثناء رحيله من الزنزانة كان وجهه متيبسا في فزع، لم يستطع حتى أن يُظهر ابتسامته المعتادة وبدت عليه دهشة رهيبة، كان نرغب فعلا أن نقتله!

وفي قلب الليل تنفس ليبج الصعداء ونظر إلى الجوال الفارغ وقال:

ـ لدي شعور أن رائحة البولندي ما زالت موجودة رغم رحيله!

لم أعلق أنا وباولين على شيء من كلامه، لكننا كنا نعرف أن ليبج لم يسعد بكرهه للبولندي.

بعد أربعة شهور أُطلق سراحي وأثناء تخليصي لإجراءات الخروج ذهبت إلى القبو متوجها إلى غرفة الزيّ لتسليم ملابسي، كانت هناك حركة نظافة وقام عشرون مسجونا راكعين بدعك الأرضيات بفرشاة التنظيف حتى يخلقون من الممر مكانا لطيفا ومنيرا، فجأة أمسك واحد منهم ببنطالني من أسفل، كان هو البولندي!، أبتسم ابتسامته الساخرة وقال هامسا:

ـ لقد تم العفو عني، لقد أعفوني من حكم الإعدام إلى السجن لمدة خمس عشر عام

وأنار وجهه من الفرحة وقال بعد أن مسح يده في بنطاله:

- ماريا! .. كل شيء من عند ماريا!

أظهرت إشارات وجهه شيئا من إيمانه بنصره على القضاء في الحكم المخفف، إيمانًا بأنه يمتلك أكبر قضاء في العالم!

مارجريت

أحببتها رغم أنها لم تكن جميله ولكنها كانت في السابعة عشر من عمرها، يداها كانتا باردتين دائمًا لعدم ارتدائها القفازات. ولدت في مدينة ليون ولم تكن تعرف أمها وقالت عن أبيها أنه خنزير. قالت لي مساء ذات يوم ـ مع نهاية العالم، سنؤجر غرفة ونشتري عَرَّقْ ونسكر ونسمع الموسيقى ونفتح صمام الغاز، ونبقى نقبل بعضنا البعض حتى نموت. لأنني أريد أن أموت مع حبيبي . أحيانًا كانت تقول لي باللغة الفرنسية:

'حبيبي، يا كرنب ألمانيا.'

جلسنا يومًا في مقهى وأتى صوت آله الكلارينت إلينا قافزًا عبر الطاولات وغنت معه امرأةٌ أغاني حب قصيرة. رُكْبَتانا اكتشفتا بعضهما البعض ودخلتا في حالة حركة وقلق. نظرنا إلى بعضنا البعض فضحكت هي وشعرت بحزني. خطر ببالي أن ضحكها يشبه ضحك أبناء السابعة عشر من العمر. لكنها ستصبح يومًا سيدة

عجوز، قلت لها إنني أخشى من انتهاء علاقتنا ذات يوم، فضحكت بطريقةٍ مختلفة، بهدوء وقالت:

'تعال!'

كانت الموسيقى حزينة، وكان الجو باردًا جدًا بالخارج، وقبلنا بعضنا البعض، ربما بسبب أغاني الحب أو حالة الحزن.

فجأة أزْعَجَنا شخصٌ ما برتبة ملازم، لم يكن له ملامح، فقط وجه وأنف وفم وعينان. كل شي كان في مكانه ولكن ملامحه كانت غائبة، وزيه العسكري كان منمقًا، قال لنا:

'كيف تأتيكما الجرأة في تقبيل بعضكما البعض في عز النهار؟'

وشدّد في كلامه على كلمة "عز النهار". اعتدلت في مكاني وأبديت له تأييدًا لكلامه.

مارجريت تحدثت معه في غضب ثم نظرت إليّ:

'من قال أنه غير مسموح لنا بذلك، نحن نستطيع أن نفعل ما نريد، أليس كذلك؟'

بقي الزي في مكانه ولم يبتعد عنّا، كنت أخشى أن يلاحظ شيئًا، لأن مارجريت كانت غاضبة جدًا:

'لكنني لن أُقَبِل أبدًا شخصًا مثل حضرتك في الليل، أقصد..'

رحل على الفور عندما سمع الجملة الأخيرة، وشعرت بالارتياح الشديد بعد أن خشيت ملاحظته أن مارجريت فرنسية، لكن لحسن حظنا كان الضباط لا يلاحظون كل الأشياء.

عادت مارجريت ثانية أمام شفتي.

ذات مرة غضبنا من بعضنا غضبًا شديدا.

كان هناك عرضٌ عسكري ومرت شرطة الإطفاء الباريسية داخل السينما، كانوا يتحركون بطريقة غريبة، فلم أستطع أن أتمالك وأسيطر على ضحكي، تركتني مارجريت وجلست بعيدًا عني في مكان ما في الصالة، كنت متأكدًا أنني قد تسببت في جرحها. تركتها نصف ساعة وحدها ثم ذهبت إليها متسللاً من ورائها في صالة السينما التي أصبحت فارغة:

"أحبك، وأحب صوتك وشعرك وأحب منادتك لي بالفرنسية بكرنب ألمانيا، أنا أحبك يديك ولغتك وكل شيء غريب فيك، مارجريت."

كنت أعرف أننا نحب بعضنا بسبب جاذبية ما هو غريب فينا، لأن ما هو غريب دائمًا جميل، خصوصًا حينما نكتشف ما يتشابه فينا. بعد السينما طلبت مني أن تدخن من غليوني، وشعرت بغثيان خفيف لكنها كانت تريد إثبات مدى قربها مني.

وقفنا عند حافة النهر، كان مظلمًا ذات ليلة وأخذ يقبّل أعمدة الجسر، بعض موجاته كانت تتحول إلى اللون الأصفر الخافت متصاعدة إلى أعلى مثلما يتحرك صدرٌ يتنفس الصعداء. النجوم كانت أيضا تعكس لونًا خافتًا ومصفرا.

وقفنا عند حافة النهر الذي أبحر من الليل لكنه لم يأخذنا معه إلى أراضٍ بعيدة وبلاد غريبة. ربما لم يعرف هو أيضًا مصير رحلته، رغم أن مصير كل الرحلات هو العدو نحو الجنة، كنا سننضم بالتأكيد بدون أي شروط مسبقة إلى إبحار الليل لكنه للأسف لم يعلن لنا عن سحره، فقط أعلن عن صوت ابتلاع الماء عن قبلاته ولم يعطنا معلومات عن فتنته الخفية. كنا نتمنى أن يعدو فوق حافته ليتوجه إلينا، إلى حافة حياتنا، كان ذلك سيجعلنا نشعر بالمساء يغمرنا. أخذنا نتنفس في عمق وهمست مارجريت قائلة:

'رائحة الهواء كالحب.'

كان الهواء معبأ برائحة الحشائش والماء وأبخرة الليل، قالت مارجريت مرة أخرى:

'ألا تشم رائحة الحب، ألا تشعر بها؟'

قلت لها هامسًا:

'إن رائحتك كالحُب، وهذه رائحتك.'

فجأة تنامت إلى مسامعنا أصواتُ أقدام تتجه نحونا وإضاءة قوية جعلتنا نغلق عيوننا، كانوا يبحثون عن فتيات قاصرات، فتيات تتفتحن في الليل بين أحضان الجنود الألمان كما تتفتح وردات الحدائق. لكن مارجريت بدت للمفتش العسكري شديدة النضوج، كنا على وشك أن نمشي، لكنه لاحظ عليها شيئًا غريبًا، ربما طريقة وضعها للمكياج، الفتيات الألمانيات كن لا يضعن المكياج بهذه الطريقة، كن يضعن قليلاً منه بطريقة غير ملفتةٍ للنظر، طلب منها جواز سفرها، لم يرتجف لها جفن، قال هو:

'هذا ما كنت أظنه، فرنسية، فخ خادع.'

بقيت مارجريت صامتة في مكانها، وأنا أيضًا اضطررت للوقوف في صمت، بعد ذلك كتب هو أسمي في ورقة ووقف كل منا وحده من جديد.

كنت أعرف أنه سيتم احتجازي بالمعسكر لمدة أربعة أسابيع على الأقل، هذا بخلاف أنواع أخرى من العقاب سيتم تطبيقها عليَّ، بقيت منتظرًا في مكاني ولم يخطر ببالي شيء يمكنني أن أقوله إلى مارجريت، قالت لي:

'أنت لن تأتي لأربعة أسابيع! إذن سينتهي كل شيء بيننا، هل ستتركهم فعلا يحتجزونك مدة أربعة أسابيع، يا لك من جبان!'

'وهل رأيتني ارتعش من الخوف؟'

'ليست لديك الشجاعة الكافية، لأنك ستتركهم يحتجزونك مدة أربعة أسابيع. أعرف أنك لا تحبني!'

يبدو أنني لن أفلح أبدًا في إقناع مارجريت بأن المشكلة ليست في خوفي من القفز من فوق سور المعسكر، وأن هناك ألاف من الحواجز الآخرى التي تعيقني وهي لا تعرف عنها شيئًا، فكرت في الأربعة أسابيع ولم أقل شيئا. بعد لحظات جربت مارجريت المحاولة مرةً أخرى:

'لا أصدق أنك لن تأتي لمدة أربع أسابيع!'

'هذه ليست رغبتي!'

كان هذا هو كل ما قلته ولم يكن ذلك بالطبع كافيًا لإقناع مارجريت التي قالت على الفور:

"حسنا، هل تعرف ما الذي سأفعله الآن"

لم أعرف شيئًا بالطبع:

'سأعود الآن إلى غرفتي وسأغسل وجهي جيدًا وسأتزين من جديد وأخرج للبحث عن حبيب أخر، نعم.'

التَفَتتْ ورحلت مختفية في ظلام الليل إلى الأبد. مع عودتي بعد ذلك إلى المعسكر كنت أريد أن أبكي، حاولت أن أفعل، ووضعت وجهي بين يدي، لكنني شممت رائحة غريبة، رائحة فرنسا، وقلت لنفسي، إنني لن أغسل يدي مساء اليوم، لم أستطع البكاء، وأظن أن

السبب كان في صوت الحذاء الذي كان يدق على الأرض بمسمع شنيع:

'حبيبي يا كرنب ألمانيا، حبيبي يا كرنب..'

'يا لك من ملعون، أيها القمر المكتمل! أنت وإضاءتك السبب في اكتشاف المفتش العسكري لنا، أنت السبب في اكتشافه للزينة الخادعة.'

أساتذة الجامعة لا يعرفون شيئا

أصبحت مثل الأومليت إلا أن منظري ليس لذيذًا، أرقد مسطحًا بوجه أصفر داخل سواد عالمي المريض تمامًا؛ سواد مقلاة الأومليت، كبدي أنتفخ واستدار مثل كرة قدم، ورأسي صار مثل آنية الشاي التي أحمرت من شدة النار، وغدت المنطقة الواقعة بين الكرة وآنية الشاي مثل الزائدة الملتهبة، كتب على الأوراق الخاصة بملف مرضي: (ملاريا ١) وإذا شدّدنا الحروف الأولى من الكلمة (مال) سنجد أنها تشير إلى الميل إلى الضعف، كم أشعر بميل حظي وضعفي الشديد وهيئتي التي تحولت إلى أومليت قبيح.

بجانبي على الطاولة كان هناك شيء يدق، تسعون رطل متجسدين في شخص يدقون على الآلة الكتابة الموضوعة فوق الطاولة وتزن خمسة وأربعون رطلاً

متمثلين في آلتي، أما التسعون رطلاً فهي تجسد شخص أبي. هذا الأب الطويل النحيف الذي يدق منذ ساعة على الآلة بشكل عشوائي ليتحول إيقاع دقه فاقد الهدف إلى إيقاع بشع يدق في رأسي المحمومة.

بالخارج، أعرف أن كل الأشياء ما زالت تتحرك في مسارها الطبيعي، الطيور والسيارات والسحب الرمادية التي تجبر كل الأشياء على ضرورة الدخول إلى المغسلة للاغتسال. كل الأشياء اتسخت لتصبح مثل فوط الحمامات القذرة، لكن لابد أن الطيور تعرف أن السماء ترقد زرقاء ونظيفة خلف فوط الحمامات. هذه السيارات لها قدرة غير عادية على الصراخ، لم أعد قادرًا على الاشتراك في الأحداث فأصبحت كل الأشياء تؤرقني، إنني مريض طريح فراش الموت، ورأسي تدق تك، تك، تك...

أجتهد في الحفاظ على الصبر وكأنني قديس تُنْتَزع أظافره فيصبر صبر الملائكة على ما يُفعل به تقربًا للرب، كيف تكون الملائكة وكيف يكون الرب!

التسعون رطلاً الأعزاء يتصيدون قلقًا عليَّ ما يسقط من غليان رأسي المتحولة إلى آنية شاي عبر آله الكتابة، كم كانت قوة صبري، خصوصًا أثناء الليل مع إخراج كبدي المتورم لزفيره المعبأ بالبكتريا وضخه عبر الشرايين

مما يؤدي إلى غليان رأسي فأستغرق في حطي قصص وهمية يكتبها أبي في الصباح.

أبي يزن تسعون رطلاً ووزن الآلة خمسة وأربعون، أبي يدّعي دائمًا أنه يشعر بالارتياح بما يفعل لأنه يخشى أن أترك مرقدي المحترق في معاناة لكي أبدأ في الكتابة بنفسي، هو يعرف أنني لن أرتاح أبدًا إلا بعد إنجاز هذه المهمة وتحقيق أحلامي فوق الورق، تسعون رطلاً ضد خمسة وأربعون، شيء غير طبيعي، شيء مريض يميل إلى الضعف.

أبي يخاف من تحول كبدي إلى بلون طائر ورأسي إلى محرك تربيني يتعرضان للانفجار في حالة فقدانها متنفس، لهذا يقوم هو بلعب دور صمام التهوية، فمن ذا الذي يدري ماذا سيحدث، هل يدري أصحاب النظارات فوق العيون بشيء، وما فائدة النظارة إن كان ما خلفها فراغًا. لا شيء سوى ابتسامة القدسيين وعيون ساذجة ممتلئة بالدموع، عيون حيوان صامت. صمت الأغبياء وليس صمت الحكماء، يجب أن نحلل الأمور دائما حتى ندرك نوع الصمت الذي نواجهه، صمت الحكماء أم صمت الأغبياء! كم كنت أتمنى التخلي عن هويتي كحامل نظارات، لأنني أدرك تمامًا أن أستاذة الجامعة لا يعرفون شيئاً.

أبي يعرف جيدًا أنه لن يهدأ لي بال فيما يتعلق بموضوع كبدي، لأنه أبي ويعرفني جيدًا، لهذا يستمر في كفاحه ضد الخمسة وأربعين رطلاً، ثم نتشاجر أنا وأبي، يتشاجر إنسان الأومليت ذو السعال الجاف والرأس التي تشبه آنية الشاي مع التسعين رطلاً، نتشاجر أنا وأبي بسبب إحدى لقطات القصة التي تظهر فيها عظام بيضاء لِقِطَةٍ من قاع النهر، أبي يعبر عن عدم قبوله لهذه المسألة ويسأل في غاية الشجاعة:

"من أين أتيت بعظام القطة في نهرك هذا، ولماذا تصر على ظهور العظام من مسواها الأبدي على اللون الأبيض؟!"

رغم مفاجأة سؤاله لي إلا إنني أعرف أنه دائما ما يُلقى بالقطط لإغراقها في الأنهار. وأنا شخصيًا أعرف هذه المسألة جيدًا لكن التسعون رطلاً لا يقتنعون بسهولة، ففي رأيهم أن الأنهار أيضا تبتلع الكلاب والعصافير والأسماك المُحْتَضِرة وموظفي البنوك المقتولتين خنقًا وعاهرات مقتولات بعد الممارسات الجنسية وحبيبات من علاقات قديمة، كل هؤلاء طبعًا إلى جانب القطط، ولا يوجد أي أستاذ تشريح في العالم يمكنه ملاحظة الهيكل العظمي من فوق الجسر وتحديد ما إذا كان الهيكل لقطة أم لعاهرة. خصوصًا أنهم جميعًا قصيري

النظر، كما أن أساتذة الجامعة، يا عزيزي، لا يعرفون شيئًا.

يا سلام! يبدو أن أبي يتحول إلى شاعر، وأنا ابنه أبحث عن مهرب سريع ورخيص رغم تأكدي من أنها كانت عظام قطة، كما أنني طلما كتبتها عظام قطة فلابد أن تبقى وتكون عظام قطة إلى الأبد. ومن يرفض قصتي بسبب عظام القطة فهو حر، فأنا لا أهتم بالقارئ أبدًا، هي عظام قطة، فإن لم يعجبه ذلك فمع السلامة وليبحث عن قصة أخرى.

ويأتي رأيٌ أكثر اعتدلاً من عند الطاولة قائلاً:

'وماذا لو كتبت أنه هيكل قطة، أي نعم هيكل؟'

أرد مقتنعًا ولكن بنوع من التمنع:

'إذاً فليكن هيكلاً.'

تقف فتاة سمراء عند الباب، لا هي ليست سمراء، بل لون عينيها وشعرها الأسمر هو الذي يعطيها هذه اللمسة من السمرة، لكنها في الحقيقة كانت مشرقة كالشمس فوق مزاجي السوداوي.

أبي يتشمم بأنفه من الغيظ ثم يذهب، فهو يعرف أن كبدي جاهزٌ في أي لحظة للتحول إلى لون طائر، يذهب إلى أمي في المطبخ البارد غير المنظم لأنه على يقين أنه يمكنني الاستغناء عن لمعان وجهه المعتدل مثل الأقمار

بمجرد وصول الفتاة السمراء بجانبي حتى تشرق بشمسها عندي.

في المطبخ سيتم النقاش مع أمي لمدة ساعة عن عدم منطقية عظام القطة. لكنني على يقين من الأمر أكثر من يقيني التاريخي بمعارك نابليون نفسها، لأن هذا اليقين يأتي من معرفة شخصية وبصرية وسمعية، أما أمي فإنها كانت تتمنى أن تكون هذه العظام لحيوان مفيد حتى لا تضطر للقلق على طعام زوجها ذي التسعين رطلا.

كانت أمي ترتدي شالاً يشبه في ألوانه الأقمشة الغجرية المنقطة بالأحمر والأزرق، ربطته حول عنقها بمشد شعر، رأيتها تدخن سيجارة مع أبي وتُلقي ثانيًا بعظام القطة في النهر بعد أن ربطتها في هيكل عظمي، حدث هذا في المطبخ، بينما كنت أراقب الأحداث بشكل جيد وفي دقة متناهية وفجأة لم أعد أر شيئًا بعد أن وضعت الفتاة السمراء معطفها فوق الكرسي لتجلس أمامي، عمرها المتكون من تسعة عشر عاماً يجعل نبضي ينتفض كقرد يقفز فوق نخلة عالية ليرميني من هناك بحبات جوز الهند ذات الشعر الأحمر:

'هل هذا قلبك؟'

'لا، يا جوز الهند، أرجوك كفى، نعم هو قلبي لأنكِ هنا يا شمسي الجميلة.'

أنسى المطبخ وعظام القطة وجوز الهند لأجبر شمسي على البقاء معي مستمتعًا بالنظر في صمت دون أن أصاب بالعمى، تريد أن تقيس نبضي، هل ترغب في ذلك فعلاً؟. القرد كان شقياً فأمسك بيدها.

خارج النافذة الآن يتم اعتصار الفوط. وتخرج أصوات خنفاء عالية من العصافير والسيارات، بوسع الأمطار أن تستمر أسابيع كاملة فبجانبي ترقد الشمس نفسها على مسافة لا تتجاوز نصف كف يد، أشعر بظهرها في ساقي حتى ظننت أنني شُفْيّت تمامًا، وما شأني أنا بالعصافير والسيارات!

لاحظنا بالتدريج أننا نميل إلى بعضنا البعض من خلال كلمات كدنا أن ننطق بها، إذًا لم نصل إلى هذه الملاحظة من الكلام:

'هل حدث طنين بأذنك مساء الأمس؟'

'مساء الأمس؟'

'في حالتك الصحية يصاب المرء دائمًا بطنين في الأذن.'

لهذا لم يكن الكلام هو السبب وراء ملاحظتنا بل كانت طريقة الحديث ونغمة الكلام كالذي يستخدمه المرء أحيانًا أثناء ملاطفته لصغار الحيوانات مثلاً، هكذا تكلمنا.

ياله من قرد، لقد اشتدت قوته واستعان بتقوية نفسه بجوز الهند، لم يرم بالحبات عليَّ فقط بل تحول ناحيتها أيضًا حتى لاحظت أن الفتاة السمراء المضيئة بدأت تنظر إليَّ في قلق وأخذ قطرت عرق صغيرة زرقاء تنتفض بسرعة من عنقها.

ليس مهمًا إن كنا أغبياء أم حكماء فصمتنا كان مفاجئًا ولم نقل شيئًا حتى أنني ظننت في تلك اللحظة أنه لا توجد كلمات في كل كتب العشق داخل مكتبات الدنيا كان بوسعها أن تقدم لنا جملة واحدة للتحدث بها.

تقول الناس أن مشروب الكونياك والحمى يساعدان على الجرأة، الأول لم يكن عندي أما الحمى فقد دفعتني بقوة للإمساك بيد الشمس ودفعها أسفل قميصي لترقد فوق قلبي:

"هل تسمعين، هناك قرد وراء هذا الدق يرمي بحبات جوز الهند، ملايين من حبات الجوز يرمي بها أسرع وأسرع، هل تشعرين بذلك؟"

ترد في هدوء:

"هل تعرف أن نفس الشيء يحدث لي الآن."

بقينا بعد ذلك صامتين، وما عسانا أن نقول في لحظة كهذه، إن أبرع المغنين لن يكون بوسعه النطق بشيء مع كل هذا الكم من حبات الجوز التي لا يفوق حلاوة

مسمعها وحديثها شيء آخر، نهيك عن أحاديث أساتذة الجامعة فهم لا يعرفون شيئًا.

أبي يعرف أن التهاب الدق بحبات جوز الهند يمكنها أن تدمر كبدي، لهذا تدخل لإنقاذ الموقف والحد من استمراره وأتى إلينا من المطبخ وقد أصبح أمر عظام القطة نسيًا منسيا.

لأنه أبي فهو يعرف أن ساعتين من إشراق الشمس في عالم المرضى تكفيان تمامًا لحالتهم الصحية، فجأة ترى شمسي المشرقة الأمر على نفس النحو، للأسف!

عندما أسألها عن ميعاد عودتها ترد:

'قريبا بالتأكيد، مع السلامة'

يعود أبي للدق فوق الآلة الكتابة بإيقاع معدني سريع يحملني في حلم داخل جنة مفتوحة، حلم أرى فيه النخيل وحبات جوز الهند وقردًا صغيرًا وعيون سمراء تأخذني في سمرتها المظلمة.